

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

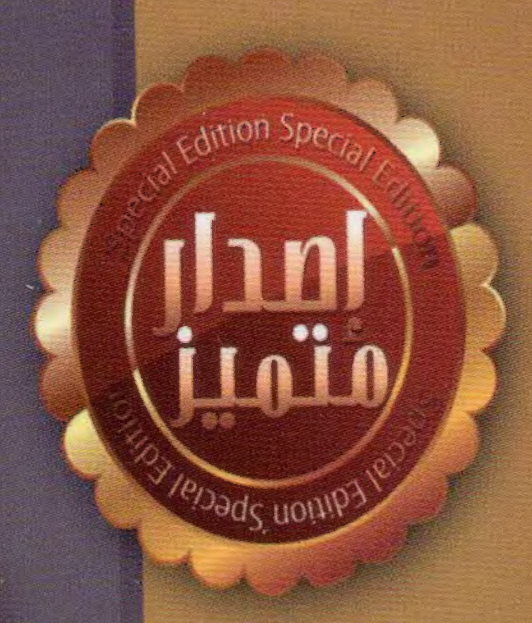
موعدنا غدا

We Meet Tomorrow

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا





روايات د. نجيب الكيلاني

عمالقة
الشمال
Giants of North

Design by Abdul Rahman Magdy





موعدنا غداً

وقصص أخرى

نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/١١٦٨٠

الترقيم الدولي:

978-977-255-431-7



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٢٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٢٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

«... كنت أفكر في معنى الشجاعة، هل هي التي رأيتها صافية قوية في هذا الشهيد؟؟

هل هي مجرد ظروف مفروضة أو استثارة تخلق منا شجعانًا على الرغم منا، أم أنها انتصار مؤقت على نوازع الخوف فينا نحن البشر...؟؟»

شجاع

«فازت هذه القصة بالجائزة الأولى في مسابقة نادي القصة والميدالية الذهبية المهداة من طه حسين»

كان الخوف يملأ قلبي، ويستولي على أقطار نفسي، وكان مجرد تصور الرصاص وهو يتطاير، والانفجارات وهي تدوي، خليقًا بأن يبعث القشعريرة في جسدي، ويدفعني دفعًا لأن أفر من المعركة، لكن ماذا يقول الزملاء عني؟! إنهم ينظرون إلى عودي الفارع في إعجاب، ويستمعون إلى آرائي الناضجة في تقدير واحترام، ويعتبرونني شابًا ممتازًا بكل ما يحمله هذا اللفظ من معان، ولا يتصور أحدهم أني جبان.. رعديد أخاف الدم والموت، ويقشعر بدني كلما ذكرت كلمة الحرب..

كنا سبعة، وكان الظلام يغلف كل شيء، ويخفي الشحوب الذي صبغ وجهي، والارتعاشة التي سادت جسدي كله، وكان

علينا أن ندهم نقطة الحراسة اليهودية من الناحية الجنوبية، لأنها تقف فى طريقنا كنتوء مقلق، ومصدر للخطر . .

ورأيت أسنان صديقى المجاور لى تلمع فى الظلام، كان يبتسم ويقول :

- «رحلة قصيرة ثم نعود بعدها . . يجب أن نعود» .

فرد عليه آخر :

- «هذا ما يجب فعلاً . . لكن الحرب لا منطق لها، قد نموت ببساطة وينتهى الأمر . . ومع هذا يجب ألا نفكر فى ذلك الآن . . » .

وخفق قلبى عند سماع كلمة الموت . . ولم أتمالك أعصابى حينما ثرت قائلاً :

- «إن الحرب حماقة كبرى» .

فقال الصديق الأول :

- «صدقت . . لكن هذا بالنسبة لمن يشعلونها ظالمين» .

ومشينا فى خطوات متوجسة وجلة، إن كل حركة يكمن فيها الموت، و«الدشم» التى يقبع فيها اليهود تشبه جحور الثعابين. لا نكاد نرى إلا النار التى تنبثق منها فقط، كالبراكين الصغيرة .

وتذكرت قريتنا النائمة على شاطئ النيل، إنها الآن تغط فى نوم عميق، يبسط فوقها السلام رواقه ويسودها الهدوء الجميل . . ما

أجمل السلام!! ورأيتني على وشك الاستطراد في مثل هذه الخواطر التي تثير الحسرات، وتهيج الحنين ونحن مقدمون على معركة.. على الموت، فذدت هذه الخواطر عن ذهني بسرعة، أو بتعبير آخر غيَّرت اتجاه فكري، وقلت لنفسي: «إننا نحارب من يعتدون علينا. ندافع عن حق.. عن حياة، عن شيء نؤمن به، أم يا ترى نفتح حدودنا وموانينا للصوص؟ وقهقه شيطاني ساخراً وقال: «لا تنسَ أن أعداءك بدورهم يعتقدون أنهم يحاربون من أجل حق.. من أجل مبدأ وإن كانوا واهمين، وهكذا تتعدد صور الحق وملابساته، فيضل أمثالك من المساكين».

الصمت المخيف ينشر رواقه على كل شيء..

والأصدقاء ينقلون خطاهم في حذر، وفي قلب كل منهم لا شك عشرات المشاعر، ومئات الآمال والأحلام، وخيالات كثيرة لأيام سلفت، وأيام سوف تأتي، ومن وقت لآخر يبتسم صديقي الذي يجاورني ويلقي تعليقًا مقتضبًا، أو نكتة خاطفة.

لكن، ألا يخاف هؤلاء الأصدقاء مثلما أخاف؟؟

إنهم يمضون بلا اكتراث، ويبتسمون وينكتون، وبعضهم يلقي ببضع كلمات تنبي عن القلق النفسي، والثورة المحتدمة، لكنهم يسيرون بلا تردد.. أما أنا فالخوف يكاد يقعدني، لماذا أكذب على نفسي وعليهم؟ لماذا أوهمهم بأني شجاع لا أخاف؟؟ ماذا يحدث لو صرحت لهم بجبني، وانسللت من بينهم، ثم عدت من حيث

أتيت؟ لقد حضرت إلى الميدان متطوعًا . . بمحض رغبتى فى نوبة من نوبات الحماس والحمية، خُيِّل إلىَّ فى وقتها أنى شجاع لا أهاب شيئًا، وأيقنت آنذاك أن حياتى وحياة الملايين مهددة بالموت والخراب . . وأطفال مثل إخوتى . . ونساء مثل «سميرة» التى أحبها، وشيوخ مثل جدى، كل هؤلاء لن ترحمهم عصابات المغول، فأسرعت إلى الميدان، وكلى شجاعة وأمل وثقة . . وفى أسبوع واحد سمعت الكثير عن الخيانات، والعبث، والسلاح الفاسد.

الحقيقة أنى أحسست بالفتور يدب فى أوصالى . . الفتور فقط . . لكن عندما صدرت الأوامر بمهاجمة نقطة الحراسة انقلب الفتور إلى خوف شديد، وندم أشد . . آه يا إلهى ما أقسى حيرتى!!!

وقال صديقى المجاور لى:

- «فعلاً الحرب حماقة، لكن هناك ما هو أحمق منها . . أعنى التسليم للطامعين بكل ما يريدون، أليس كذلك؟؟».

ووكزنى بكوعه وكزة خفيفة. فقلت فى تأفف:

- «اسكت . . يجب أن نصمت».

- «أجل، لكن أمامنا ما لا يقل عن سبعة كيلو مترات . . إن الطريق ملتوٍ والجبل وعر المسالك . .».

وقلت له فجأة :

- «ألا تخاف؟؟» .

- «مم؟» .

- «من الموت» .

وقبل أن ينطق التقطت أسماعنا حركة واضحة، وسرعان ما انبطحنا أرضًا فى لمح البصر، وجمدت يدى على البندقية، وعيناى تحملقان فى الظلام كخنجرين يغوصان فى كتلة من الفحم الصلب، وظللنا كما نحن ما يقرب من نصف ساعة، نتلقف أدق الأصوات، ونلصق آذاننا بالأرض علّنا نحس شيئًا، وتبينا أخيراً أن هناك ذئبًا يلتهم فريسة . . وفى هدوء استأنفنا المسير، ولم نحاول أن نتعرض للذئب بأذى، ولم أعد للتساؤل مرة أخرى، وصديقى هو الآخر يبدو أنه قد نسى السؤال، لكنى لم أنسَ اللحظة التى انبطحنا فيها على الأرض، لقد فعلنا جميعًا بطريقة تلقائية، تمامًا كما تنتزع يدك وتبعدها بسرعة إذا ما غرس أحد دبوسًا فيها بغتة . .

هل نفعل ذلك بدافع الخوف؟ لقد انبطحنا قبل أن نفكر لأنه لم يكن هناك وقت للتفكير، ولو حدث أن فكرنا، لكان انبطاحنا بناء على خطة . . تكتيك . . ولكان حذراً وحيطة، لا خوفًا أو هلعًا .

ومشينا فى الطريق الملتوى الوعر قاصدين نقطة الحراسة . . هدوء شامل، لا يقطعه سوى عواء ذئب، أو صراخ فريسة سرعان ما تستسلم، ووجوه حمراء مصبوغة بالدم تتراءى لى فى السواد

الضافى، وكلما اقتربنا ازدادت أعصابى توتراً وإرهاقاً . . لم أفكر فى الرجوع رغم أنى جد خائف . .

كنت أسير لأن من معى يسيرون . . لم أحاول أن أتوقف، لأن نقطة الحراسة اليهودية يجب أن نبلغها فى ساعة معينة حسب الأوامر، إن للجماعة منطقاً آخر غير منطق الأفراد، لم أكن حراً بمعنى الكلمة، لم تتعد حريتى أفكاراً مشوشة هائمة مختلطة تدور فى رأسى، أما حركاتى فمرتبطة مع الكتلة الصغيرة- أعنى الأصدقاء السبعة- التى تمضى إلى الأمام فى إصرار، يا لهم من شجعان . . أما أنا فصغير رغم تقديرهم لى . . إنى أعود رغم أنفى إلى التفكير فى قريتنا النائمة فى حضن النيل، الناعسة فى سلام وسكون . . وأعود إلى التفكير فى «سميرة» . . وأشياء كثيرة أخرى . .

- «يجب أن نتبعثر هنا . . خذوا الحذر . . لقد اقتربنا من منطقة الخطر . . » قالها صديقى المجاور لى فى صوت خفيض استمعنا إليه بكل ذرة فى كياننا . نسيت نفسى فى هذه اللحظات . .

كلما اقترب الموت، ولاح لنا الخطر، غصت فى عالم غريب، لا أكاد أحس فيه بخوف أو بشجاعة، ولا أكترث لموت أو حياة، إنى أتحرك كآلة يجرى فيها دم وتحمل بندقية، لم أعد أحس برجفة، وأقدامى تنتقل فى ثبات عجيب . . لا أستطيع أن أفكر، عيناى فقط تخترقان الظلمة، وتبحثان فى قلق وعناد عن المكان الذى قد تكون فيه نقطة الحراسة اليهودية . .

وانتشرنا هنا وهناك، أما أنا وصديقى فقد سرنا معًا.

- «يجب أن نكف عن السير منتصبين ونزحف على الأرض..».

- «أجل..».

- «لكنى أخاف الألغام التى يبثونها فى الطريق..».

- «وكيف نتقيها؟».

- «نحن المقدمة، وعلينا أن نطهر الأرض ما أمكن..».

يا عجبًا، إن أجبن إنسان فى المجموعة يسير فى المقدمة.. أنا الطليعة أليس هذا غريبًا؟ إن زميلى لا يحس بشىء من ذلك، كل ما يعرفه أنى رجل يعتمد عليه. فدائى متطوع لا يهاب الموت، وإلا لما أتيت بمحض رغبتى..

وغمغم رفيقى:

- «ليس المهم حياتنا، لكن المهم هو أن نحقق ما أتينا هنا من أجله، يجب أن نلقى قنبلة حارقة على كل «دشمة» من «الدشم الثلاث».. بذلك نقضى على نقطة الحراسة تمامًا، إنها وكر للقناصة الخطرة، قضت على كثير من الضحايا..

ولم أدر السبب الذى من أجله وقف صديقى بغتة؛ وانتصب كالمارد، وبلا تفكير حاولت أن أفعل مثله حينما رأيته ينحرف ناحية اليمين ممسكًا بندقيته، لكنى سرعان ما لزمت مكانى، وظللت

منبطحًا حينما صك أذنى صوت أعيرة نارية ملاحقة توهجت فترة، ثم ارتمى صديقى على الأثر وهو يصرخ فى ارتياع.

لحظات رهيبة لست أدرى ماهيتها على وجه الدقة، كانت يدى على الزناد. وعيناى تبرقان فى بلادة وجمود.

وتناهى إلى سمعى صوته الواهن اللاهث:

- «لا تتوقف.. امضِ زاحفًا فوق الأرض.. حذارِ أن تنتصب واقفًا، إن العدو يقظ..».

قالها ويده تشير ناحية نقطة الحراسة..

وساد السكون مرة ثانية، والظلام حالك جامد، لا ينبض بشىء، ولا ينبى عن شىء، فقط ظل الموت يحوم فوقنا، لكن خُيِّل إلىَّ أن الظلام كله عيون: وخناجر.. ودم أسود.

- «لِمَ تقف هكذا؟؟.. تقدم.. يجب أن تصل فى الموعد».

- «وإذا قتلونى..».

- «لا تفكر فى الموت الآن.. هل المتفجرات جاهزة معك؟؟».

- «أجل..».

- «أسرع.. لكن انحرف قليلاً ناحية اليمين.. خلف هذه الصخرة.. إن رفقاءنا سيبدءون العمل فى لحظات.. كم الساعة الآن؟؟».

- «الواحدة والخمس دقائق».

- «لتمضِ بسرعة . . ».

وعاد رصاص العدو يدوى من جديد، وعلى ضوء التوهجات الخاطفة والضجيج المتلاحق اتضح لنا الهدف قريبًا، ونظرت إلى الرفيق الذى ارتمى وهو ينزف ويئن فى خفوت . . كان يبتسم منذ لحظة، ويعلق على آرائنا، وينكت فى رزانة وعدم اكتراث، لماذا وقف؟؟ ولم أصيب هو بالذات؟ هل انتهى أمره؟ أتراه يخاف الموت الآن أم أنه بطل شجاع يسخر من الموت كما كان يسخر من الحياة، ويغمض جفنيه فى دعة عندما يموت، وكأنه فى إغفاءة كالإغفاءات السابقة؟؟ وسمعته يصرخ:

- «قلت لك تقدم . . ».

إنه لا يفكر فى شىء فى لحظاته الأخيرة إلا التقدم . . الخطة الموضوعة والزملاء الذين يتبعوننا، وأوامر القيادة، ونقطة الحراسة التى يجب أن ندمرها عن آخرها، هل هذا بشر؟! أما أنا . . آه تافه . .

وتدحرجت دمعة فوق خدى، وأحسست بها ساخنة حارقة لكنى ضربت رأسى فى الأرض، لست أدرى لماذا، وواصلت الزحف قابضًا على بندقيتى، وكأن هناك «موتوراً» يدفعنى إلى الأمام، وأخذت أنفاسه اللاهثة المتعبة، وأنينه الخافت يذوب رويداً رويداً، لكنه كان يصرخ فى روحى، ويهز كيانى هزاً عنيفًا، وكأنه

يصب من دمه النازف زيتًا فى «الموتور» السحرى الذى يسيرنى ناحية حقل الموت، حيث «الدشم» والقناصة، ونافورة النار. ماذا حدث بعد ذلك؟؟

أخذت ألف وأدور حول نقطة الحراسة، أرفع صمام الأمن ثم أقذف ناحية «الدشم»، وكررت العملية مرارًا بطريقة رتيبة لا خوف فيها ولا ملل أيضًا، والأنين الذى فى الظلام، والأنفاس اللاهثة للجريح الملقى هناك ما زالتا تلفحان روحى وكيانى، فلا أميز بين خوف أو شجاعة، أو أفكر فى حياة أو موت . .

وحينما انقطعت طلقات العدو زحفت إلى الداخل، والتقيت مع الرفاق الخمسة، وأخذنا نجوب نقطة الحراسة، لم نجد غير قليل من الذخيرة وخمس جثث محترقة لبشر . . تماثيل من الحماقة . .

وأحسست بقبلات كثيرة تطبع فوق جبهتى ورأسى ووجنتى، واستطعت أن أميز بعض الكلمات التى يتفوه بها الزملاء . . بطل . . شجاع . . جسور . . وفى تراخٍ وألم توجهت ناحية الجريح الذى تركناه خلفنا.

كان ساكنًا باردًا . . لا نفس فيه ولا حركة . .

كان إصبعه فقط يشير ناحية نقطة الحراسة . .

وبعد أن انتهت الشهقات والدموع، حملناه على الأعناق

عـائدين إلى مـعسكرنا ، ورغم الأسى والحـزن الذى يجلل مـوكبنا الباكى كنت أفكر فى معنى الشجاعة . .

هل هى التى رأيتها فى هذا الشهيد صافية قوية لا شك فيها أو تردد؟؟ أهى مجرد ظروف مفروضة أو استثارة تخلق منا شجعانًا على الرغم منا ، أم أنها انتصار مؤقت على نوازع الخوف فينا نحن البشر ؟؟؟

***

وفى الصباح كنت فى طريقى إلى نقطة الحراسة اليهودية ، ومعى فئة من جنودنا تحت قيادتى ، لنقيم لنا هناك نقطة حراسة على أنقاض «دشم» الموت . . وعلى كتفى نيشان جديد . . لشجاعتى .

●●●

«إن الحياة قصيرة، ويجب ألا نثقلها بالعنت.. والجمود.. والأحقاد، لأن قصرها لا يحتمل كل ذلك، فما بالك بحياتي وقد ضاع منها اثنا عشر عـــامًـــا فى ظـلام الســـجـــون؟؟..».

عند العودة

كان «مسعود» مستلقيًا فوق «البرش» وعيناه تحملقان فى سقف الزنزانة، والظلام يلفع كل شىء، والرفاق من حوله يغطون فى نوم عميق غامض الأحلام، مرتجف المنى، أما هو فلم ينم طوال هذه الليلة، إنها الليلة الأخيرة التى يقضيها هنا بعد اثنتى عشرة سنة طويلة مليئة بالمآسى والدموع والهوان.

كان السؤال الذى ما زال يطن فى أذنيه هو : هل يستطيع الإنسان أن يغفر للنساء؟؟ إن خطيئة المرأة كالجرح الغائر فى صدر الرجل، لا يستطيع النسيان أو مرور الزمن أن يسبغ عليه العلاج الناجع، و«مسعود» رجل محافظ، يعتبر خطيئة المرأة أبشع جرم فى الحياة، وهذا هو السبب الذى أدى به إلى السجن، ذلك المصير التعس..

إن ما حدث منذ اثنتى عشرة سنة يتراءى لمسعود فى هذه اللحظات الأخيرة وكأنه حدث بالأمس، وكيف ينسى أن زوجته «نفيسة» قد باعت نفسها للشيطان فى لحظة من لحظات الغرور والضعف، ومع من؟؟ مع أعز أصدقائه «عبد السلام فرج».. لم

يكن صديقًا بل ذئبًا غادراً يلغ فى شرف من أولاه ثقته، وفتح له بيته، وعامله كما يعامل الأخ أخاه، لكن «عبد السلام» تنكَّر لكل ذلك، وجر «نفيسة» معه إلى الهاوية، وفى الوقت نفسه قذف بمسعود الزوج المخدوع إلى غلظة القضبان، وظلام السجون.

و«مسعود» يعترف بأنه كان منذ زواجه قاسيًا مع زوجته، يقابلها دائمًا بوجه عابس، وينتقدها فى كل شيء، ويعاملها وكأنها أمة مستعبدة، ويسخر من زينتها إذا ما تزينت، ولا يثنى على طعام أجادت طهيه، أو يشكرها على مجهود بذلت فيه العرق الغزير، ولم يفكر فى يوم من الأيام أن يقدم لها هدية، أو يصحبها إلى ملهى أو ينعم معها فى رحلة خارج القاهرة، بل كان غارقًا فى عمله الحكومى بكل جوارحه، مهتماً بمطالبه الخاصة، حتى لكأن الزوجة والحياة مسخرتان لرغباته هو، لا أحد يشاركه فى ذلك..

هذا حدث فعلاً..

لكن هل يكفى ذلك لأن تزل «نفيسة»، وتلوث شرف «مسعود» بالعار، وتلطخه بالأهوال؟؟

وذات يوم سرى الهمس المشين إلى أذنيه، لم يصدق فى بداية الأمر؛ فهو واثق فى «عبد السلام» ثقة تامة، وليس من المعقول أن يتدلى «عبد السلام» إلى هذا السفه، وهذه النذالة، ثم إن «نفيسة» هى الأخرى أجبن من أن تفكر فى الخيانة، وأضعف من أن تسلم نفسها لرجل غير زوجها.. إنها تخافه وترهبه لدرجة فظيعة، فضلاً

عن أنها تافهة . . لا وزن لها . . أو على الأصح يجب أن تكون كذلك رغم جمالها الفاتن .

واختلطت نوازع الشك بنفسه حينما أبلغته واحدة من الجيران أن «عبد السلام» يتردد على بيته فى بعض الأوقات التى يغيب فيها «مسعود» لتأدية عمله ، وكظم «مسعود» غيظه ، لم يستطع أن يتكلم ، وكيف يبدى لصديقه شيئًا من الريبة والشك؟؟ إن هذا أمر تأباه الثقة المتبادلة ، ولا تقره صداقتهما الوطيدة .

وأخذ «مسعود» ينظر إلى زوجته نظرة ذات معنى ، ويدقق النظر . .

إنها جميلة جذابة ما فى ذلك الشك ، وهى كذلك منذ أن رآها لأول مرة ، لكنه لم يكن يفكر فيها إلا عندما يشعر بالجوع الجنسى ، فيقضى حاجته تمامًا مثلما يملأ معدته بالطعام ، ثم يمضى . . لم يكن يدرك أن المرأة فى حاجة إلى أشياء أخرى . . وتذكر «مسعود» أن «عبد السلام» شاب لبق ، أو كما كانوا يطلقون عليه فى العمل «رجل دبلوماسى» «بتاع مجتمعات» . . . فشعر بالضيق والكدر وتبين لأول مرة أن زوجته جديرة بأن يغار عليها ، وأن «عبد السلام» ممن يخاف منهم ، ويحسب لهم ألف حساب .

واستطاعت العيون الفضولية أن تلمح «عبد السلام» وهو يدلف إلى مسكن «مسعود» ذات صباح ، فطار الخبر إلى الزوج على جناح السرعة ، وفى دقائق عاد «مسعود» ليجدهما معًا ، ولم يكونا

متلبسين بجريمة، لكن الذى أحنقه وأشعل النار فى قلبه، أن «عبد السلام» لم يستطع أن يبرر وجوده فى هذا الوقت بالذات لدى «نفيسة»، وفى الوقت نفسه شحب وجه «نفيسة»، وأوشكت أن يغمى عليها، وتسمرت فى مكانها مثل تمثال من الرعب . .

وسكت «مسعود» . .

لكن كان فى أعماقه شيطان خبيث يزرع بذور الانتقام والثأر فى نفسه، ويصرخ فى كيان «مسعود» عند يقظته ومنامه : إن «عبد السلام» يستحق الموت جزاء خيانته .

والغريب أن «مسعود» تجاهل «نفيسة»، لماذا لا يفكر فى الانتقام منها هى الأخرى؟؟ أليست شريكة فى الإثم حسبما يعتقد؟؟ لماذا يبقى على حياتها، وهى التافهة . . أو الأمة المستعبدة التى تريد أن تتحرر عن طريق اقتراف الخطايا . . ؟

ولم يستطع «مسعود» أن يجيب عن هذا التساؤل الحائر . .

***

وقتل «عبد السلام فرج» فى ظروف غامضة، ولم يطل الغموض، فقد استطاعت التحريات أن تجمع بين «عبد السلام» و«مسعود» فى أكثر من نقطة، وحينها ثارت من جديد الشكوك التى حامت حول «نفيسة» و«عبد السلام» وتناولها التحقيق، أخذ الطريق يتضح، وأمسك المسئولون بخيوط الجريمة، وهكذا ذهب

«مسعود» إلى الليمان ليقضى فيه اثنتى عشرة سنة تاركًا طفلاً فى عامه الثالث، ورضيعة لم تكمل العام الأول من عمرها. .

***

وتقلب «مسعود» فوق «برشه» بعد أن أرسل تنهيدة حارة، ثم أخذ يستعيد أيامه الأولى فى الليمان، البدلة الزرقاء. . الرفاق الشرسين. . المعول الذى يحطم به الصخور الصلدة. . الأيام العجفاء التى لا تجود بغير الأسى والحرمان، وظل الخيانة الرهيبة الذى يلاحقه أينما ذهب، وملامح الجريمة البشعة التى أراق فيها دم «عبد السلام»، والزوجة التى ما زالت هناك تعيش. . «آه». . يا إلهى لِمَ لم أقضِ عليها؟ ما كان أغبانى حين فكرت فى الانتقام منه وتركتها هى. . من يدرى؟ قد تطلب الطلاق اليوم أو غدًا، ثم تقذف بطفليها فى ملجأ، ثم تستأنف الحياة مع «خروف» آخر تخدعه وتعبث بشرفه. . هذا ما كان «مسعود» يحدث به نفسه فى السنوات الأولى لسجنه. . ومرت الأيام. . و«مسعود» يرى فى السجن كل يوم لونًا جديدًا من ألوان الخطايا والجرائم، بل إن رفاقه المسجونين يروون عشرات الحوادث التى ارتكبوها دون أن يستطيع القانون أن يمسك بخناقهم، وخُيِّل إليه بعض فترة أن الخطايا خلقت مع الإنسان، وإلا فكيف يفسر ما يموج به هذا المجتمع العجيب فى السجن من مخازٍ ورذائل. .

إن «مسعود» يسمع كل يوم جديداً. . وقناع الغطرسة والجمود

ينزاح عن بصيرته يومًا بعد يوم، ونفسيته أخذت تتشكل وتتطور . . والسنوات تمر عليه تأخذ منه أشياء وتعطيه غيرها، ومفاهيم الخطيئة أخذت تتخذ لها فى نفسه معنى آخر، ومضى يتساءل: ما الذى دفعها إلى خيانتى؟ «آه» لم أفهمها كما يجب. . لم أحاول أن أهبها شيئًا. . كان كل شىء لى أنا. .

وتنحنح «مسعود» وهو ينهض من فوق برشه، ويبحث عن علبة السجائر كى يتناول منها واحدة، وإن كان يفهم تمامًا أن مجرد انبعاث رائحة الدخان فى جو الزنزانة سوف يوقظ أصحاب «الكيف» فينتظر كل منهم دوره كى يجذب من اللفافة نفسًا أو نفسين، وليس هذا هو ما يضايق «مسعود»، لكن الذى سوف يثيره فعلاً هو أنهم سوف يقطعون عليه أفكاره فى ليلته الأخيرة. .

وبعد انتهاء التدخين، عاد «مسعود» للاستلقاء على ظهره، ووصل ما انقطع من أفكاره، وخفق قلبه خفقات ذات مشاعر مبهمة وهو يتساءل: لكن لماذا لم تطلب «نفيسة» منى الطلاق طوال هذه المدة؟؟ لماذا لم تقذف بالطفلين إلى الملجأ، وتبحث لها عن حياة جديدة مريحة محاولة أن تنسى المأساة والدم الذى أريق؟؟ إنها لم تزل تعيش كالراهبة فى مسكنها، قانعة باللقمة التى تسد الرمق، باذلة أقصى ما تستطيع فى سبيل ولدها وابنتها، لا تضن عليهما بتضحية طوال سنوات تعليمهما. . بماذا أفسر ذلك؟

هل يعقل أنها تكن لى فى قلبها الحب بعد ما حدث؟؟

والغريب فى الأمر أنها لا تفتأ ترسل بخطاباتها من وقت لآخر رغم أننى رفضت السماح لها بزيارتى ولو مرة واحدة، وأهلى لم يفكر أحد منهم أن يمدنى بما أحتاج إليه من مال، أما هى فترسل إلىّ ما أحتاجه من وقت لآخر..

ترى ماذا تخفى فى رأسها؟؟

لعله مجرد تكفير للخطيئة التى أقدمت عليها، لكن هل يقدم على مثل هذا اللون من التضحية امرأة خاطئة؟؟

ما أعجب أمر الإنسان..!! ويبدو أن الخطيئة فى كثير من الأحيان لا تستطيع أن تمحو بعض المشاعر النبيلة أو تقضى على الأحاسيس الإنسانية.. لكن ما السبب فى أنها لم ترسل إلىّ خطابًا واحدًا فى الشهر الأخير؟؟

***

وسرى فى هدوء الليل وسكونه، صوت أحد المساجين مؤذنًا لصلاة الفجر، فهب «مسعود» من فوق «برشه» وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويستلهم الله التوبة والغفران، وبعد أن أدى الصلاة وقرأ ورد الاستغفار، وحمد الله على أن كتب له النجاة طوال هذه الأعوام السود، آوى إلى برشه، ثم غمغم فى صوت مبحوح تخالطه الدموع: «ليس هناك إنسان بلا خطيئة» إن الإنسان النظيف المنزه عن الخطايا أسطورة كاذبة، لا وجود لها فى عالمنا.. بل فى

الوهم والخيال، ليس العيب أن نخطئ وإنما العيب أن نتمادى فى الخطأ، لقد زلت «نفيسة» وكفرت بطريقة ما عن زلتها، وقد أخطأت أنا الآخر وكفّرت عن خطيئتى فى هذه السنين الباكية. انتهى كل شىء، وكفى ما حدث، يجب أن أبدأ من جديد، والحياة قصيرة. وليس من الإنصاف أن نثقلها بالعنت والجمود والأحقاد، لأن قصرها لا يحتمل كل ذلك، فما بالك بحياتى وقد ضاع منها اثنا عشر عامًا فى ظلام السجون؟؟ إنه شىء فظيع يا إلهى.. فلأقلها بصراحة.. إنى قد غفرت لنفيسة ثم إنى أحبها، والحب.. يغفر الكثير.. أحب المرأة التى سهرت على راحة طفلىّ، ولم تتنكر لى فى محنتى السوداء، ولِمَ لا أحبها؟ إن شبح الخطيئة القديمة قد ذاب فى خضم آلامى وتجاربى القاسية.. آه.. إن الضعف الإنسانى مأساة المآسى، لكن ماذا نفعل والحياة هكذا منذ الأزل؟؟

***

كان «مسعود» يقف فى طابور المفرج عنهم وهو على أحر من الجمر، إن السنوات الطويلة التى مضت لتعدل هذه اللحظات القصار من الانتظار واللهفة، كان فيه شوق لأن يرى ولديه، ويرى نفيسة أيضًا، والحرمان الطويل، والغربة القاسية لتتجمع فى هذا الوقت، وتضاعف أشواقه المجنونة، لقد أصبح ابنه فى الخامسة عشرة من عمره، وابنته فى الثالثة عشرة.. كبرا وترعرعا.. وبعد قليل سوف يمشى بينهما سعيدًا لا تكاد تسعه

الدنيا، لكن أتراهما يحسان بشيء من العار والخجل وهما يسيران بجوار رجل قاتل، خريج الليمان، وزوج أمهما الخاطئة؟؟ إن هذا شيء يقلقه تمامًا، ويؤرق عليه سعادته، ويشوب فرحته الطارئة بغير قليل من الكدر، غير أنه تذكر أنه أب، وأنهم أولاده. والحواجز المصطنعة، أو المصطلحات المشينة التى يلصقها المجتمع به لن تكون ذات أثر أمام هذه العاطفة السامية، عاطفة الأبوة..

وعلى باب السجن فتح «مسعود» ذراعيه لولديه، وغمر وجهيهما بالقبلات والدموع، إنها أشواق السنين الطويلة بعد الحرمان الطويل، وهمس «مسعود» وقلبه يدق..

- «لكن أين أمكما؟؟».

فلم يجبه أحدهما بشيء، فهز الأب رأسه فى ثقة وقال:

- «آهِ فهمت.. يا لها من خبيثة!! يبدو أنها لم تزل متأثرة لأنى لم أسمح لها بزيارتى، وتريدنى أن آتى إليها لمصالحتها، ليكن لها ذلك، هذا أقل واجب يؤدى نحو هذه الأم الطيبة يا أبنائى».

وبكى الفتى.. وبكت الفتاة..

وكذلك انسابت دموع «مسعود»..

لم يستطع أحدهما أن يزيد على ذلك، أو ينطق بكلمة واحدة.
وعند باب البيت قال «مسعود» لهما:

- «لتبقيا أنتما فى الخارج لحظة . . أريد أن أفاجئها ، يا لها من لحظة حلوة . . » .

وحينما حاول أن يخطو إلى الداخل ، همّ ابنه أن يمسك بيده ، لكن «مسعود» نحّاه فى رفق ، ودلف إلى الداخل وهو يقول فى مرح :

- «دعنى يا ولد . . يا لك من غيور مشاغب . . ما أشد حنينى لهذا العش الجميل . . » .

كان المسكن خاليًا من أى شيء ، كل شيء منظم منسق ، المقاعد ، الفراش ، الأدوات المنزلية ، الصور الموضوعة فوق المكتب وعلى الحائط ، بدلة جديدة له ، زجاجة من الشربات ، وصندوق من السجائر الفاخرة ، وخطاب باسم «مسعود» ، وفض «مسعود» الغلاف وأخذ يقرأ : «لم أستطع البقاء . . إن شبح الخطيئة سوف يظل منتصبًا بينى وبينك ، ليس من السهل على مثلك أن ينسى ما حدث ، لم أجد لدىّ الشجاعة الكافية كى أواجهك حتى بعد هذه السنين ، لم أزل أخافك و . . وأحبك ، ومع ذلك فلن أعود ، من الخير أن نفترق . . » .

«نفيسة»

وزاغت نظرات «مسعود» . .

وأحس أن البيت رغم رحابته وأناقته أضيق بكثير من زنزانته الشاحبة التى كان يعيش فيها حتى اليوم ، وصرخ فى انفعال :

- «إنها واهمة . . يجب أن تعود . . لقد وضعتُ حداً لهذا الماضى البغيض، ولن أسمح للألم والحقد والخوف أن تستعبدنا بعد ذلك . . ».

وحانت من «مسعود» التفاتة فوجد ابنه وابنته يقفان فى اضطراب وحزن، والحيرة مرتسمة فوق وجهيهما، فاندفع إليهما وقال:

- «ماذا تنتظران؟؟؟ هيا لنبحث عن أمكما . . يجب أن تعود . . ».

●●●

«.. إن نجاحنا فى الحياة يقوم على دعامتين: إحداهما نبنيها بأيدينا، والأخرى ترفعها يد الغيب أو الحظ.. يد الله..».

كفاءات

خرج «سعيد عبد المنعم» من دار المجلة التى يعمل بها، فى خطوات متثاقلة مترنحة، وتحسس جيبه برقة، كى يطمئن على سيجارة الهوليود المتبقية، ومر عليها بأنامله، ثم تركها كما هى مؤجلاً تدخينها إلى حين وصوله إلى حجرته، إن ما يطويه سعيد فى قلبه من ضيق وألم لجدير بعلبة هوليود بأكملها، لكن ماذا يعمل وهو كما يقول المثل: «العين بصيرة، واليد قصيرة».

وفى دوامة الجلبة والضجيج التى يثيرها الناس فى ميدان المحطة أخذ سعيد يفكر، إنه رجل مكتمل الرجولة، كما أنه ذو مؤهل.. أجل.. بكالوريوس التجارة شيء مش شوية.. ومنذ مدة طويلة لم يستطع الحصول على عمل حكومى، فآثر أن يعمل فى الصحافة. شجعه على ذلك رغبة قديمة، وموهبة لا بأس بها وأحلام تتراءى له من بعيد، إذ كثيراً ما كل يحلم بالمقالات الرنانة التى تتصدر الصحف أو المجلات ممهورة باسمه، ويحلم بالرحلات الجميلة بين شتى بلدان العالم، على نفقة الجريدة، أو المجلة التى سوف يعمل بها، وكم كان يتحرق شوقًا إلى الشخصيات الكبيرة فى المجتمع، إنه حينما سوف يقابلهم ويأخذ منهم الأحاديث،

يعقد معهم أواصر الصداقة والمعرفة، إن «سعيد» كفاءة طيبة، والناس يقولون: إن الكفاءات لابد أن تفرض نفسها فرضاً.

وعندما وصل تفكير «سعيد» إلى هذا الحد، غمغم فى سخرية مرة: «كفاءات ها.. ها.. ها.. كفاءات إيه؟؟ دا كلام للتخدير، للضحك على ذقون المخدرين من أمثالى، ما فيش حاجة اسمها كفاءات فى الدنيا دى.. حظ الناس اللى بيضالهم فى القفص، وفيها كمان مبدأ شيلنى وأنا أشيلك..» وبصق «سعيد» على الأرض فى ازدراء وحنق، ثم نظر إلى الترام وإلى العربات التى تتسابق تحت النفق مندفعة إلى شارع شبرا، مكتظة بالركاب، وعلى التو أحس بالتعب الشديد، الذى يسرى فى رجليه من طول المشى، إنه لا يستطيع اليوم أن يركب الترام، أو الأتوبيس، «العبد وسيده على الله، وجيبى أنضف من الصينى بعد غسيله، مش كده ولا إيه، هو الواقع كده..».

إن إيراد «سعيد» الشهرى غير منتظم، وهو يتراوح بين سبعة جنيهات وثمانية، يدفع منها إيجاراً للحجرة جنيهين، أما الباقى فيأكل به ويشرب منه السجائر، وينفق منه على المواصلات والغسيل والمكوى حاجة بسيطة.. قميصين وبنطلون وجاكتة وغيارين داخليين.. أمرهم سهل وأنا اللى بأغسلهم بأيدى مش بيقولوا إن الحياة كفاح.. هاهاها.. طظ ياسيدى.. كفاح إيه ده اللى مالوش آخر، والله حاجة تطلع الروح لو كان الواحد راح ورشة من الأول، كان طلع أسطى بعد سنتين ولا الغلب اللى شفته

فى التعليم وقرف التعليم، ما كانش ربنا رزقنا بعمارة ولا خمسة أو ستة فدادين، بذمتى كان الواحد عمل عمدة، لكن آه من الحظ المقطرن».

وتنهد «سعيد» فى حسرة ثم ضغط على أسنانه مغتاظًا وهو يتذكر رئيس تحرير المجلة التى يعمل فيها، إن رئيس التحرير متغطرس ظالم وأبطرته النعمة، وأضله المركز الذى يتبوأه، وكلما قدم إليه «سعيد» تحقيقًا صحفيًا، أو عرض عليه مشكلة اجتماعية بذل فيها ما بذل من مجهود وعرق وبحث، رمقها الرئيس بطرف عينه، أو مر على بعض كلماتها مرورًا خاطفًا فأخذ عنها فكرة مبتورة، وأخيرًا يقول له فى تذمر:

«إيه ده يا أستاذ سعيد؟؟ دا كلام فارغ. شغل ما ينفعش للولعة، إنت بتفكر بعقلية العصر الحجرى، يعنى مالقيتش غير الموضوع ده؟؟».

- «لكن حضرتك يا أستاذ وافقت عليه من الأول..».

- «أرجوك مفيش داعى للمناقشات البيزنطية دى، ما تضيعش وقتى عاوز أشوف حاجات أحسن من كده.. تفضل.. الصحافة رسالة ومسئولية، مش كلفتة وسد خانات.. مفهوم؟».

- «مفهوم ياأستاذ».

ويلم «سعيد عبد المنعم» أوراقه فى يأس ثم يخرج، ولا يفتأ يتصفح الجرائد المختلفة، ويقرأ المجلات العديدة، باحثًا عن نماذج

مثالية يحتذيها ، عاقداً المقارنات بين ما يكتبه هو ، وبين ما ينشر لغيره، فيجد في كثير من الأحيان، أن ما يتفتق عنه ذهنه أحسن بكثير مما يقرؤه، قد يكون ظالماً في حكمه، فليكن إنتاجه في مستوى واحد مع كثيرين منهم، ثم يعود «سعيد» ويهمس إلى نفسه :

- «صحيح حظ . . وكمان شيلني وأنا أشيلك . . إن مقالات رئيس التحرير نفسه تافهة، ولا قيمة لها . . والله العظيم حمار وما بيفهم حاجة . . ».

وفتح «سعيد» حقيبته، ثم أخرج منها آخر موضوع كتبه وقدمه لرئيس التحرير، وأخذ ينظر إلى العنوان الكبير الذى كتب بالقلم الآخر «الحرية في بلادنا . . ما هى الدوافع الحقيقية لها؟؟ كبار رجال الجريمة والعقاب يتكلمون بصراحة . . آراء بعد المساجين. إلخ».

وبعد أن تركزت عينا «سعيد» على العنوان مدة طويلة، زحف ببصره إلى المقدمة الرائعة التى افتتح بها الموضوع . . جمل قصيرة رنانة، ألفاظ محكمة تلفت النظر، مقدمات ونتائج منطقية مدروسة بإخلاص وكفاية تامة، إن «سعيد» قد أحس المشكلة بقلبه وروحه، وعاش بعض وقائعها بوجدانه وعقله، فانفعل بها أصدق انفعال ثم كتبها كأحسن ما تكون الكتابة، بعد أن انتزع موافقة رئيس التحرير على الشروع فى التحضير للموضوع، وشعر «سعيد» بالرضا يسرى بين جوانبه

بعد أن أتمه . . وداعبه الأمل فى مبلغ محترم يقبضه ثمنًا لتعبه وسهره، ثم إنه أولاً وقبل كل شىء، أحس بأنه قد فعل شيئًا، قد قدم عملاً مثمراً ذا خطورة، وهذا ما يسعده أكثر .

وأخيراً ماذا كانت النتيجة النهائية لهذا التعب المضنى، وهذه الآمال العراض؟؟ لقد بسط الورق أمام رئيس التحرير، وبمجرد أن وقع بصره على العنوان صاح فى حدة غريبة :

- «جريمة إيه ومجرمين إيه يا سى سعيد؟ أنت مش حاسس بالدنيا؟؟ ألم تسمع عن باخرة الموت «دندرة»؟؟ دندرة غرقت يا أستاذ . . نريد أن نستدر الدموع، أن نبكى الملايين من أجل هذه الكارثة . . من أجل الأطفال الأبرياء الذين راحوا فى عمر الزهور . . من أجل الآمال التى طواها الموج القاسى . . » .

وصمت رئيس التحرير فترة ليرتشف رشفة من فنجان القهوة، ثم جذب نفسًا من سيجارة فاخرة، بينما تململ «سعيد» فى حزن، وقال فى صوت خفيض :

- «صحيح . . لكن . . » .

- «لكن إيه؟» .

- «أعنى أن رحلة الموت فى الباخرة دندرة مثل الجريمة تمامًا» .

فقهقه الأستاذ ساخراً وقال :

- «اكتشاف جديد ولا إيه؟؟».

- «أبداً بس عاوز أقول، إن هناك فى محيط الجريمة غرقى وجرحى لا اليوم فحسب، ولكن فى كل ساعة. . إنها مأساة دائمة، وتستحق الاهتمام تماماً مثل مأساة دندرة. . إن إثارة الضجيج حول كل حادثة -تاركين وراءنا ما هو أهم- افتعال سخيف. .

ودق جرس التليفون، فتناول رئيس التحرير السماعة، دون أن يعى تماماً ما «يهرف» به «سعيد عبد المنعم»، أو يعلق بذهنه شىء مما قال، بينما بقى «سعيد» فى مكانه جامداً والألم يعتصر فؤاده، ويوشح أفق أحلامه بالسواد، وعندما انتهى رئيس التحرير من مكالمته التليفونية، قال وكأنه يلقى خطبة منبرية:

- «يا أستاذ سعيد، قدامك حاجات كتير. . تسلل إلى فندق هيلتون، واقفش لنا كم حاجة. . افتح ودانك والطش لنا حكاية مثيرة. . فضيحة «محترمة» تهز المجتمعات. . يا أخى وإن ما لقتش حاجة من دا كله ابتكر. . ألم تسمع عن «الفبركة»؟؟».

- «سمعت كتير يا أستاذ. .».

- «عليك نور. . كن فهلوى. . ابن حتة. . اتلحلح اعمل معروف، باين عليك لخمة قوى. .».

قال «سعيد» فى حنق مكتوم:

- «الصحافة رسالة».

- «طبعًا يا سعيد».

- «ومسئولية كمان . . ».

- «وهى دى عاوزه بحث؟؟».

واستدرك رئيس التحرير قائلاً :

- «لكن ما تنساش إنها فن وكفاءة بكل معنى الكلمة . . فى إخراجها . . وطريقة عرضها . . وموضوعاتها ، كى تجذب الأنظار إليها ، وتحظى بأكبر عدد من القراء».

وحاول «سعيد» عندئذ أن يرد على رئيس التحرير ، أن يقول شيئًا ، لكنه حول بصره عن «سعيد» فى ابتسامة عذبة وهمس فى رقة :

- والله . . إنت جيتى يا نوال . . ».

- «طبعًا . . جيت بسرعة . . ».

- «وعملتى إيه؟؟».

- «كل خير . . آدى مذكرات الراقصة «نهاد» . . وآدى صورتها كمان . . وصورته هو . . لا مؤاخذة دا بقى «ساكندهاند» وفيه واحد جديد مرشحينه ليحل محل المرحوم . وآدى صورته» :

- «يا سلام يا نوال . . تستاهلى كل خير وشرفى ، اتعلم يا أستاذ سعيد . . الزمن ده زمن السرعة . . زمن الإثارة والفبركة . . ».

والتفتت «نوال» إلى الأستاذ «سعيد» وحيته قائلة :

- «متأسفة يا أستاذ سعيد، ما ختش بالى . . صباح الخير . .» .

وخرج «سعيد» وفى قلبه آلام كثيرة، وأحقاد أكثر، كان بسبب الناس والحياة والكفاءات، ويلعن الشعارات الزائفة، والمصطلحات الخادعة، تلك التى يهرجون بها على الناس، يملئون بها أذهان الأغرار والحالمين بالمثل العليا، وقبل أن يغادر دار المجلة لحقت به «نوال»، وقالت له فى توسل ورجاء :

«والنبى يا أستاذ سعيد عاوزاك تصوغ لى التحقيق ده بأسلوبك الحلو . .» .

***

تذكر «سعيد» كل ذلك وهو لم يزل يسير مترنحًا متعبًا فى شارع شبرا وكاد يبكى، لكنه سارع فى إخراج السيجارة المتبقية كى يشعلها لعله يتسلى عن همومه، متناسيًا أنه قد أجل تدخينها إلى حين وصوله لحجرته، وغمغم فى سخرية حزينة :

- «خير البر عاجله . . ننسجم خمسة وبعدين تفرج . .» .

ولم يفكر «سعيد» فى أن يرفع بصره إلى الشرفة المقابلة لنافذة حجرته . . إن فتاة أحلامه تسكن خلف تلك الشرفة، وهى معجبة بالفن والأدب والصحافة، وبالأستاذ «سعيد»، وكثيرًا ما تلوح له من شرفتها . وقد يدور بينهما حديث مقتضب، يمضى «سعيد»

بعده، وقلبه يخفق بشدة، وروحه تكاد ترقص ابتهاجاً وسعادة، لكنه هذه المرة زاهد فى كل شىء، فى الحب . . و النســـاء . . والحياة . . والكفاح والعرق . . إنه يحس بالملل الثقيل يغمر قلبه . . ومن ثم قصد إلى حجرته مباشرة، وترك نافذتها مغلقة، وأخذ يستعيد ما قاله رئيس التحرير، ويستعرض ما تقدمه «نوال» من موضوعات شائقة ناجحة، هل فى استطاعته أن يستجيب لما يطلبه رئيس التحرير؟ وهل يمكنه الذهاب إلى الهيلتون؟ وبأية طريقة، ومن أين له بالمال اللازم؟ وكيف يحصل على بدلة أنيقة تناسب المقام؟ وهل فى إمكانه أن يتصل بالراقصات والنجوم ونساء المجتمع؟؟ إنه خجول وحساس لدرجة كبيرة، ومثل هذه المجتمعات تحتاج إلى المال . . والصفاقة . . والنفاق، وتحتاج إلى الفبركة أيضاً، وهو فى هذه الناحية ليس كفئاً، لكن أتنجح «نوال»، ويتخلف هو عن الركب الزاحف إلى المجد والشهرة والمال؟؟ أتنتصر عليه امرأة؟؟ ليته كان ضمن ضحايا دندرة حتى ينجو بنفس من هذا الصراع النفسى القاسى، ويسلم من لهيب هذا الشقاء الذى يلازمه صباح مساء، وفى هذه اللحظة سمع صوتاً ينبى عن فتح الشرفة المقابلة، وأصواتاً مفتعلة فهم منها أنها لمجرد لفت نظره، يبدو أن الحبيبة تريد أن تتسلى، أن تلهو معه من بعيد، كالثمرة العالية التى لا تصلها يده . . «أكل البلح حلو بس النخل عالى به»، وأحس «سعيد» أنه قد استراح قليلاً، وأن حالته النفسية فى طريقها إلى الخلاص من ذلك التوتر المباغت، فاتجه ناحية النافذة

وفتحها لتقع عيناه على صاحبة الوجه الجميل «نعمل إيه بس، آدى إحنا بنسلى الغلب» يبدو أنها فتاة طيبة تساوى عشرة من مثيلات نوال، وخمسمائة من أمثال رئيس التحرير».

***

فى صباح اليوم التالى، فوجئ «سعيد» برئيس التحرير يطلبه على عجل، وحينما دخل عليه وجده مغتاظًا مربد الوجه، فحوقل «سعيد» وبسمل، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وأخذت أوصاله ترتجف إشفاقًا بما قد يحدث: «لكن هيحصل إيه أكتر من اللى حاصل؟؟ يا عم قل يا باسط..».

قال رئيس التحرير:

- «فين البلوى بتاعتك؟».

- «بلوى إيه لا قدر الله؟».

- «الزفت.. موضوع الجريمة والمجرمين، المسئولون لم يوافقوا على مذكرات الراقصة «نهاد» لمنافاتها للآداب العامة، ولم نجد شيئًا نملأ به الصفحات إلا الفلسفة بتاعتك والكلام الفارغ.. أعمل إيه بس، هو إحنا هنفتح المجلة معهد للأبحاث الجنائية؟؟ الأمر لله، فين بقى زفت الطين بتاعك..!!».

فقال «سعيد عبد المنعم» مرتبكًا:

- «لحظة واحدة..».

- «هيه مش معاك المقالة!!».

- «في نص ساعة أكون جبتها من البيت».

- «طيب اتحرك. إنت واقف كده ليه؟».

وعند باب المبنى تذكر «سعيد» أنه لا يملك في جيبه مليمًا واحدًا، فكيف يسرع إذن إلى شبرا ويحضر الموضوع؟! إنه يحتاج على الأقل إلى قرشين أجرة الترام ذهابًا وإيابًا، وبعدها سوف يقبض خمسة جنيهات دفعة واحدة ثمنًا لموضوعه، وأقبل «سعيد» نحو الساعي واقترض منه القرشين.

***

وابتسم الحظ لسعيد مرة أخرى، عندما فاز موضوعه عن الجريمة والمجرمين بجائزة وزارة الشئون الاجتماعية التي رصدتها لأحسن تحقيق صحفي يتعرض لإحدى المشكلات الاجتماعية، فقبض خمسين جنيهًا كاملة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل عرض عليه زميل صحفي العمل معه في جريدة صباحية بمرتب شهري ثلاثين جنيهًا.

لقد ابتسم الحظ لسعيد، وأصبح نجمه الآفل في تألق وصعود وخُيِّل إليه أنه على أبواب المجد الذي حلم به طويلاً، المجد الذي أراد الوصول إليه عن طريق نظيف، وعندما كان يودع رئيس التحرير ابتسم الأخير ابتسامة عريضة وقال:

- «وهو ده معقول؟ إزاي أضحي بكفاءة ممتازة زيك يا أستاذ سعيد؟؟ ده أنا مربيك على إيدي.. وأنت ابن المجلة البار،

سأعطيك المرتب الذى يرضيك، وستبقى معنا هنا رضيت أم أبيت . . » .

وفى الطريق إلى البيت ، كان سعيد يركب الأتوبيس درجة أولى، وفى جيبه سجائر «ماتينيه» ، ويحلم بمسكن نظيف ، وعدد من القمصان ، وحذاء جديد ، وبدلة أنيقة ، ويتنهد عندما يتذكر أن فتاة أحلامه سوف تكون معه تحت سقف واحد .

ويغمغم «سعيد» فى رضى وثقة :

- «صحيح ، إن الكفاءات لا بد أن تفرض نفسها ، غير أن وجود الحظ أمر ضرورى . . إن نجاحنا فى الحياة يقوم على دعامتين : إحداهما نبنيها بأيدينا ، والأخرى ترفعها يد الغيب أو الحظ . . يد الله» .

***

«.. إن نفوسنا سريعة التحول.. وإن التعبير عن الذات قد يتخذ صوراً عكسية، وإن ما نخافه وننفر منه.. قد نأتيه ونمعن فيه، فى لحظات لا ندرى كنهها ..»

شىء صغير.. ولكن

«عزيزتى وداد..

إن القلم يرتجف فى يدى، وقلبى يدق فى عنف وثورة، إنه لأمر مؤسف حقاً أن يحدث مثل ذلك من إنسان يكره من أعماق قلبه أن يظهر بمظهر الضعف والانهيار أمام النساء..

«لندخل فيما قصدت إليه مباشرة دون إسهاب فى المقدمات، فأنا أحس بأنى فى مسيس الحاجة لأن أنفض إليك كل ما يعتمل فى نفسى المريضة المحمومة، نفسى التى أصبحت مصدر شقاء وتعاسة لى، بعد أن عجزت تمام العجز عن الانفلات من طغيانها، والهروب من قيودها التى لا ترى..

«حينما كنا فى السنة الإعدادية بكلية الطب. لم أكن أفكر فى الحب ولم يكن هناك إرهاصات تنبى عن تمرد قلبى، أو خروجه على المواضعات التى ألفتها، ولا عجب فى ذلك إذا ما عرفت كيف تشكلت نفسى. وكيف تطورت أحاسيسى إزاء الحب والنساء، فكلاهما كان فى اعتقادى خطيئة، كانت أمى فى الليالى القمرية، فوق سطح منزلنا المتواضع، والذى يندس بين عشرات البيوت

الصغيرة فى القرية، كانت تروى لى الكثير عن ألاعيب النساء ومكائدهن الشيطانية، حكت لى عن الدماء التى سالت بسببهن، وكيف لعبن بالملوك، وأثرن الحروب، وضحين بالزوج والولد الصغير فى سبيل حبهن ونزواتهن.

وتصادف أن كان أخى الأكبر يتلقى العلم فى الأزهر الشريف، لكنه كان تعس الحظ، فلم يوفق فى دراسته، فنشأت وأنا أجده فى بيتنا بلا عمل، ويقضى الليل والنهار فى سأم وملل، وأكد لى الجميع أن سبب خيبة أخى الأكبر، وبلوغه هذا المصير التعس، هو حبه لفتاة أكلت مخه، وامتصت قروشه القليلة، صرفته عن العلم والدراسة فغضب الله عليه، وأورثه الضياع والفشل.

«أجل، كانت الأساطير التى ترويها لى أمى، وكذلك القصة الحية لفشل أخى، هما سبب بغضى للنساء، وريبتى فى كل ما يأتين أو يدعن من أعمال وأقوال، فلم يكن غريبًا بعد ذلك أن أدمن مشاهدة الأفلام السينمائية التى تتعرض لموضوع الحياة الزوجية، وأقرأ أول ما أقرأ فى الصحيفة أخطر القضايا، وأغرب قصص الحب والجرائم الزوجية.

«ونما عودى، وأدركت عهد الشباب، وأحسست أن هناك تغيرات عميقة الجذور تتخذ من نفسى وجسدى مسرحًا لها، وخُيِّل إلىّ أن فى قلبى وروحى ينابيع تريد أن تتدفق.. أن تنطلق وتعبر عن حقيقتها ومعنى حياتها، لكنى ضغطت على هذه العواطف التى تتحفز للثورة.

إن الحب معناه الخطيئة فكيف أخطئ وأغضب الله؟؟ والنساء جميلات مغريات، لكنهن يكذبن ويخدعن ويتسببن فى العار والشقاء فكيف أسوق نفسى إلى الهاوية . . ؟ وهناك رغبات محتدمة تضج فى روحى، لكن هذا الطريق -كما تقول أمى- أوله لذة عابرة، وآخره خيبة أبدية، وسخط من الله والناس، ومن ثم خفت النساء، وكانت فرائصى ترتعد عند سماع كلمة الحب . . أو الخطيئة.

ونامت هواجسى ونوازعى نحو المرأة . .

بل خُيّل إلىّ أنها ماتت كلية.

وكثيرًا ما يختلط علينا الأمر، إذ إن السكون مظهر عام للنوم أو الموت على السواء . .

وفى أثناء الفترة التى كنا نقضيها فى «المشرحة» لم أكن أشعر بك تمامًا رغم أنك ضمن مجموعتى، وماذا كنت تنتظرين من غريب نازح إلى القاهرة مسلح بالشك والخوف . . والفقر أيضًا؟؟ غير أنى بعد فترة لاحظت بعض المعجبين يطوفون حولك، ويرمقونك من بعيد بنظرات نهمة، فنظرت إليك أنا الآخر لمجرد الفضول. فوجدتك لا تلقين بالاً لنظراتهم الوقحة. فأعجبت بموقفك الرائع، غير أنى كنت فى الوقت نفسه أكاد أنفجر سخطًا عليهم وعلى مسلكهم الذى بدا فى نظرى مشينًا.

«وبمحض الصدفة عرفت أنك من إحدى القرى القريبة من

«سنباط» أي فلاحة مثلي، هذا ما يجعلني أزداد إعجاباً بصلابتك، وأدافع عنك في حرارة بمناسبة وغير مناسبة، وأشعر أن هناك رابطة قوية تجمعنا، ومع ذلك فقد كنت لم أزل أسير على الشاطئ دون أن أجسر على النزول إلى البحر الصاخب الهدار.

«ثم حدث شيء..

إن ما يدهشني أن نفوسنا سريعة التحول، كثيرة التقلب، وأن التعبير عن الذات قد يتخذ عكسه، وأن ما نخافه وننفر منه، ونحسب له ألف حساب، قد نأتيه ونمعن فيه في لحظات لا ندرى كنهها، ولا نكاد نعرف لها تفسيراً واضحاً مقنعاً.

«أجل. كانت هناك أشياء تنمو في نفسي، وأشياء أخرى تتضاءل أو تختفي، فبهتت الأساطير التي كانت ترويها أمي، وأصبحت مأساة أخي لطول التفكير فيها، والخوف منها أمراً سقيماً يجب أن أتجاهله وأتناساه».

«وتبادلنا تحية الصباح، بعد أن تحملت صلفك ونفورك المصطنع، وهيأت لنا المصادفات أكثر من لقاء. كنا نلتقي حول جثة واحدة نراجع دروس التشريح، ونتناقش فيها، ونظل هكذا في تلك الحجرة الواسعة ذات الرائحة المميزة محتملين قوتها حتى يوشك النهار على الانتهاء ولا يبقى إلا أنا وأنت.

«وهكذا أصبحنا..».

فلاح وفلاحة، يخوضان معًا حياة جديدة فيها كفاح وأمل، ويعيشان غريبين فى مدينة كبيرة واسعة مليئة بالألوان والألحان. . وكنت أجد لذة كبرى. وأنا أجلس فى صالة المحاضرات الخاصة بالزملاء وعيناى مصوبتان ناحية الباب تنتظران مقدمك، فإذا ما رأيتك مقبلة أشرقت روحى، وترنم قلبى بأناشيد سماوية لا يسمعها أحد، فأشير إليك إشارة خفيفة كى تأتى وتجلسى بجوارى فى المكان الذى أحجزه لك دائمًا . . «شىء واحد كان يؤرقنى ويكاد يسلمنى إلى الجنون، هو أن العيون ترمقك فى إعجاب ورغبة، وكم كنت أتحرق لهفة لأن أقتلع هذه العيون المتلصصة من محاجرها، أو أنهال على أصحابها بمبضعى طعنًا وتمزيقًا حتى أقضى عليهم، لكنها كانت مجرد أمنيات شاذة حمقاء».

«ودهمنى شعور مفاجئ بالإسراع إلى الارتباط بك ارتباطًا أقوى وأوثق، حتى أشعر تمامًا أنك لى، وأنى على حق حينما أؤدب أولئك العاشقين الذين يحومون حولك وينثرون فى طريقك الابتسامات وعبارات المجاملة . .

«وقد كان . .

«لم تكن أمى مرتاحة تمامًا لخطبتى فتاة متبرجة بلغت حدآ من المروق والتحلل، بحيث تبيح لنفسها تلقى العلم بين الرجال، فتاة تعيش وحدها فى القاهرة، ولن أنسى كلمة أمى يومذاك، لقد قالت . . «إن

كان أخوك نفع، ابق تعال انفع» ومع ذلك فقد كانت مرغمة على الموافقة بعد أن فشلت فى إقناعى بالزواج من إحدى قريباتها.

«عزيزتى وداد..

لعلك لم تزالى تذكرين تلك الفترة التى أعقبت خطبتنا، كانت فترة سعيدة حقًا، وكانت سعادتى تربو وتتضاعف يومًا عن يوم، وأحسست أنى أحرز تقدمًا مطردًا فى شتى مجالات حياتى، ولم يكن يقلقنى إلا حساسيتى الشديدة لكل شىء يتصل بك، نظراتهم إليك، حديثهم عنك، تعمدهم المرور من أمامك، كل هذه الأشياء كانت تخنقنى، وتلهب غيرتى فأتوهم أن أحدهم قد يختطفك منى، أو يضع بينى وبينك ستاراً يحجبك عنى.

***

«ومضت الأمور على هذ الوتيرة حتى جاء ذلك اليوم الملعون.. لكن لماذا نصب اللعنة على هذا اليوم، وأفعالنا الحمقاء، ونزواتنا المجنونة هى السبب..؟؟

«ياله من يوم..

«لست أدر ى لماذا لم أدخل معمل الفامار كولوجيا بمجرد وصولى إليه، آه.. لقد تذكرت.. كى أدخن سيجارتى، ولم يكن من اللائق أن أدخل المعمل وهى مشتعلة، فوقفت جوار النافذة فى الخارج حتى أنتهى من تدخينها، وكان الزملاء منبثين فى أرجاء المعمل، يتنقلون هنا وهناك، أو يعاينون إحدى التجارب أو يعيدون إجراءها..

«وكنت أنت بينهم يا وداد . .

«ومن خلال النافذة رأيت . .

ماذا يا إلهى؟؟ لم أكن أتصور أن يحدث ذلك . .

إن زميلنا «نبيل»، كان يقترب منك ، وربما بدا هذا أمراً عادياً لكن الذى لفت نظرى هو ما شاب حركاته من ارتباك وخجل ، وحينما اقترب منك حياك بطريقة غير طبيعية ، لقد لاحظت الرعشة التى اختلجت لها شفتاه . ولمحت الشحوب الذى كسا وجهه ، ليس هذا فحسب بل إنك أنت الأخرى عندما وقعت عيناك عليه . رأيت عدوى الارتباك والاضطراب تنتقل إليك . . والأدهى من ذلك أنك درت بنظراتك الخائفة المتوجسة فى شتى أنحاء العمل ، ثم تركزت نظراتك أخيراً على مكانى الذى أجرى فيه تجاربى دائماً ، كنت تبحثين عنى ، وتأكدت أننى لست فى مكانى المعتاد ، أكنت تخافين وجودى؟؟ هل أحسست بشىء من الاطمئنان والرضا حينما حسبت أن عينى لا تراقبانك أو تحصيان حركاتك؟؟ هذا ما حدث فعلاً فقد رأيتك بعد ذلك تبتسمين ، وتبادلين «نبيل» حديثاً ودياً خجولاً ، لم أسمع منه حرفاً واحداً بالطبع ، فقد كنتما بعيدين عنى ؛ وشعرت بعقب السيجارة يلسع إصبعى ، فقذفت بها فى سرعة ، ثم أخذت أتابع ما تفعلان ، ربما كان حديثكما يدور حول الدروس ، وربما كان مجرد تحية عابرة طالت أكثر مما يجب ، أو ربما تناولنى أنا . . أنا الواقف لدى النافذة نهباً للغيرة والثورة والألم الممض . .

وربما يكون الوهم قد خطط أمامى صوراً رهيبة -كنت آنذاك لا أنظر بعينى، بل كأنما كنت أضع بينى وبينكما مجهراً ذا قوة تكبير عظمى، حتى بدت لى تصرفاتكما الغامضة شيئًا مشينًا مشوهًا لا أستطيع استساغته.

«وروعت يا وداد عندما رأيت نبيل يتبسط معك فى الحديث فتتبسطين معه، ويقف بجوارك، وتحملقان سوياً فى قلب الضفدع الذى تجريان عليه التجارب.. وكدت أسقط إغماء عندما بدا نبيل وهو يقبض على زندك العارى بيده فى هدوء وبساطة غريبين، ثم يسير بك إلى مكان تجاربه هو وأنت تطيعين فى غير كلفة.. وأنا لم أشهد ذلك فيك أنت الفلاحة المتغطرسة التى ترعى التقاليد، وتخاف ألسنة الناس، وكدت أتفجر غيظًا وأنا أراكما تمضيان وسط الطلبة دون أن تلتفتا إلى أحد، كنتما حسبما أعتقد غارقين فى دنياكما، وكنتما تبتسمان ابتسامات تشى بالكثير.

وعلى التو تذكرت كل ما كانت ترويه لى أمى عن نساء جلسن على عروش من جماجم الفرسان، وخضن فى بحار من دماء المعجبين والعاشقين كما تروى ألف ليلة وليلة، وفى لحظات أصبحت المرأة أمامى صورة للغدر والكذب والنفاق، وأصبح الحب خديعة كبرى، وخطيئة لا تغتفر، فتذكرت أختى وخيبته، ذلك الدليل الحى الذى نسيته فى طوفان حبك.

«وعدت فى ذلك اليوم اللعين من حيث أتيت.

لم أدخل المعمل، بل نظرت من خلال النافذة إلى مكانى الخالى المهجور. وأدوات تجاربى الملقاة فى جمود، ثم أسرعت إلى مسكنى، أجتر آلامى، وأنوح على ذكرياتى. والظلام يشوب كل شىء داخل نفسى وخارجها، والغيرة تلهب كيانى، والشك ينهش صدرى بأنيابه السوداء بلا رفق ولا رحمة، وبين آونة وأخرى يطل خيال «نبيل» الشاب الفتى، النابض بالحيوية والرجولة، فتزداد ظلمات نفسى سوادًا ونار قلبى اشتعالاً.

«وحاولت أن أهرب منك.

«حاولت أن أنساك وأنسى حبى..

أما أنت فقد أتيت إلىّ فيما بعد، وكأن لم يحدث شىء على الإطلاق، لم ألحظ عليك أدنى تغيُّر، ولم يمتد بنا الوقت إزاء هذا الوضع الحرج الكئيب، فقد لاحظت ما شاب تصرفاتى من فتور، وأخذت تلحين فى السؤال، بل لمحت فى عينيك ذات مرة ظلالاً لدموع، كنت فى حيرة لا تدرين السر الذى يكمن وراء ما جد من تصرفاتى، وأنا الآخر لم أستطع أن أقول شيئًا؛ ولم أكن بقادر حتى على التفوه باسم «نبيل»، فقط قلت لك آخر مرة لقيتك فيها: «إذا أردت أن تحكمى على تصرفات إنسان؛ وتفهمى شخصيته تمامًا فلتراقبيه من بعيد.. من بعيد.. وفى لحظات خاصة يعبر فيها عن ذاته ورغباته دون تكلف أو نفاق..».

وقد راقبتك يا وداد خلال النافذة، ورأيتك تهتمين بإنسان غيرى

وتعاملينه برقة فائقة . . وأنا أنانى غيور . . متشكك ؛ ولا يروقه مثل هذه التصرفات .

وكم حاولت جاهداً أن أنسى . . أن أقنع نفسى بتفاهة ما حدث ، لكن بلا جدوى .

قد يكون ما حدث شيئًا صغيراً فى نظر بعض الناس ؛ ولا يستوجب كل هذا الضجيج والعويل ، أو يؤدى إلى تحطيم حلمنا الجميل ، ولكنه فى نظرى أنا شيء كبير ورهيب . .

وهذا هو السبب فى فسخ خطبتى لك . .

«يا إلهى . . إنى لا أكاد أرى أمامى الآن إلا يد «نبيل» وهى تقبض على زندك العارى ، وأنت تبتسمين له ، ثم تتلفتين باحثة عنى حتى تتأكدى من خلو المعمل منى . .

لماذا كان ذاك؟؟

ولم حطمت حلمنا الجميل؟؟

«ليس لى إلا عزاء واحد هو أننى لن أثق فى امرأة طول حياتى ، وسأبقى هكذا دائماً بلا رباط . . بلا قيود . . وسأشتريها إذا أردتها . .

وليغفر الله لمن يقاسى أهوال العذاب .

البائس

«......»

طوت وداد الخطاب ذاهلة . .

إنها لا تكاد تذكر شيئًا من هذه التفاصيل الغريبة ، إنها قابلت «نبيل» مقابلة عابرة ، ولم يكن فيها ما يخدش الكرامة على الإطلاق . . فكيف يقول هذا الكلام . . لا بد أنه كان مريضًا . . وهبت واقفة عازمة على لقائه لتوضح له حقيقة الأمر ، وكانت تقول وهى فى طريقها إليه :

- «إذا كان يحبنى حقيقة فسوف نصلح ما أفسد الزمان . . إنه وهم لا غير . . والحب يغفر الكثير» .

●●●

«.. مهداة إلى الدكتور طه حسين صاحب جنة الشوق..»

ملك الملوك

[١]

فى إحدى الليالى الخالدة التى أغفلها التاريخ، اضطجعت «شهرزاد» فوق سريرها الفريد، كانت أعمدته الذهبية تتألق فى روعة، وكانت الفرش الحريرية تبدو فى الضوء الخافت الشاعرى وكأنها سرقت من جنات النعيم، وإلى جوارها كان ينتظر «شهريار» فى لهفة زائدة حديثها العذب الجميل..

وفى نبرات رقراقة ندية قالت «شهرزاد»:

بلغنى أيها الملك السعيد، أن ملوك الحبشة فى غابر الزمان، وسالف العصر والأوان، كانوا يسيرون على نهج عجيب، ويحافظون على تقاليد تدعو إلى الغرابة والدهشة، فإذا جلس ملك الملوك وابن الآلهة على عرشه، كان أول شيء يفكر فيه أن يجمع أفراد البيت المالك الذين يحق لهم أن يرثوه فى عرشه ثم يلقى بهم فى مكان بعيد، منقطع عن العمران وحولهم العيون والأرصاد والحراس الأشداء، ولكنه لا ينسى أن يغدق عليهم ما يشاءون من مطعم وملبس ومشرب وذهب..

وفى منفى من هذه المنافى السحيقة، كان يعيش شاب اسمه

«نورافيس» أقرب الأقرباء إلى ملك الملوك بعد ولده وريث عرش الملوك الآلهة :

كانت الليلة قمرية ساحرة ، وكان «نورافيس» وحده فى مكان هادئ رقيق النسمات ، لكنه لم يكن يلتفت لكل ذلك ، أو يلقى إليه بالاً ، فقد كانت أحزانه وآلامه أكبر من أن تصرف ذهنه إلى جمال الطبيعة وروعتها فى هذا المكان المنعزل السحيق .

وطافت بذهنه صورة «ساجورا» ، التى هام بها حباً ، وجن بها شغفاً ، والغربة يا مولاى تزيد لهيب الأشواق ، وتضاعف الشجو والحنين فى قلوب العاشقين ، وتمنى «نورافيس» أن لو اختطفته قوة سحرية ، ثم ألقت به إلى حيث تقيم «ساجورا» على مسيرة عشرات الأيام والليالى ، لكنها كانت مجرد أحلام لا سبيل إلى تحقيقها .

وسالت الدموع من عينى «نورافيس» ، وجاشت عواطفه ، ثم رفع وجهه إلى السماء وغمغم فى ضراعة :

«تباركت يا أبانا فى علياء سمائك . .

ها هم أبناؤك متناثرين على الجبال ، مبعثرين فى الأخاديد ، يشاركون الدواب مراعيها . . لكنهم مع ذلك ما زالوا يسبحون لك ، ويترنمون باسمك أيها الإله الخالد العظيم» .

وأخذ «نورافيس» بعد ذلك ينحدر تجاه ذلك الأخدود الضيق الذى تقبع فيه بيوت أخرى غير بيته ، فنظر إلى هذه البيوت المتراصة التى يربو عددها على العشرين ، جدرانها من خشب ،

وأسقفها من فروع الأشجار وسيقان النبات، ويحيط بالمنطقة كلها نقط عديدة للحراسة قد رابط فيها الجنود الأحباش برماحهم المسمومة، وسيوفهم المشرعة وسحنتهم السمراء القاسية، ولحاهم الكثة، وعيونهم التى تتقد كما تتقد الجمرات الملتهبة، وعن كثب تمتد المراعى والغابات الفسيحة التى ترتع فيها الحيوانات المختلفة.

وكانت هذه البيوت الخشبية تضم بين جدرانها ثلاثين أميراً من أمراء البيت المالك الحبشي، أولئك الذين يعتقدون أنهم أبناء الله، وورثة ملك سليمان بن داود، لكن هل كتب الله على أبنائه أن يسكنوا بيوتاً من خشب، ويتيهوا فى الوهاد ويحرموا من الأهل والأحباب، ويقضوا الحياة بلا أمل؟!

لكنك تعلم يا مولاى العظيم أنه فى عهود الظلام إذا تعارضت مصلحة الملك مع أوامر الآلهة، أبى الملوك إلا أن يكون لهم ما يريدون.

[٢]

وصل «نورافيس» إلى داره الخشبية، لكنه آثر أن يدع الراحة والهدوء إلى حين، وأن يفكر فى حل، فسارع بدعوة الأمراء الثلاثين إلى بيته، وما إن اجتمع شملهم. وجلسوا ينتظرون فى صمت وسكون، انطلق صوت «نورافيس» ثائراً هادراً..

«أيها الصحاب..

تعلمون أن نجاشي الحبشة، ملك الملوك قاطبة، وابن الرب الأعظم قد عصى أباه الممجد، وأغضبه في حكمه، ويكفي عصياناً أن النجاشي قد عاملنا معاملة تقل عن معاملته لأفراد الشعب: العبيد والخدم، وهو يعلم تمام العلم أن طينتنا ليست من طينتهم، ولا دماءنا الطاهرة مثل دمائهم، ومعنى ذلك أن الدنيا قد انقلبت موازينها، وهل هناك كارثة أكبر من تساوى السوقة والملوك. . ؟

أين نحن الآن من «أكسوم» عاصمة الملك وفخر المدائن، ومرتع الهوى والشباب؟؟

أنظل نشقى في هذا الأخدود المنعزل الذي لا تمر به قوافل ولا تطرقه قدم مسافر؟

لقد اعتقد النجاشي أيها الرفاق، أن كل ما يلزمنا في الحياة هو ما يرسله لنا من طيب الطعام، ولذيذ الشراب، واعتقد العاصي المارق أن ما نطوق به أعناقنا من أطواق الذهب، ونحلى به معاصمنا من الدر والياقوت، ونستر به أجسادنا من الحرير. . اعتقد النجاشي أن كل هذا سوف يشبع رغباتنا؛ ويؤنس وحشتنا، وينسينا الآلام والعذاب.

يا صحاب. .

الحرية. . ولا شيء غير الحرية. . فالحرية هي الحياة. . ».

وانتزع «نورافيس» أطواقه وأساوره الذهبية وأوشحته الحريرية، وقذف بها بعيداً في ثورة واحتقار، وواصل حديثه قائلاً: «خير لنا

أيها الصحاب أن نهيم فى الوديان عراة الأجساد بلا ذهب أو حرير، نأكل ونشرب ما نشاء، ونقول ونفعل ما نريد، وننعم بالأهل والأحباب، ونحظى بالحرية، وبعد ذلك لا بأس من أن نرد الحياض جنبًا لجنب مع الدواب، وننتزع رزقنا بعرق الجبين، ما دمنا نستمتع بالحرية . .

إن النجاشى ملك الملوك، وسيد البقاع، وابن عمى وابن عمكم قد أنساه هيلمان الملك، وصولجان التاج واجبه نحو الأقرباء، أنساه ما هو فيه من حرية حريتنا المسلوبة، وأنساه ما هو فيه من نعيم شقاءنا المقيم، وصرفه مجده عن رؤية ذلتنا وانكسارنا، ويكفيه أن يرى شعبه يحنى له الجباه ويعفرها بالرغام احترامًا وتقديسًا . .

يا رفاق النفى والتشريد . .

لقد جمعت بيننا النكبات ووحدتنا الآلام، وورثنا هذه المآسى ابنًا عن أب، فإلى متى يستبد بنا هذا الهوان من جيل إلى جيل . . ؟؟

إن كل ما فى الأمر، هو أن كل ملك يجلس على عرشه، يخاف على نفسه من المؤامرات، وعلى وريثه من القتل، فيرتكب أبشع الوسائل حتى يضمن لنفسه السلامة، ولوريثه الملك من بعده . . ولو فكر هؤلاء الملوك المتتابعون تفكيرًا جديًا فى هذه المأساة، وقضوا على ذرائع الخوف والتذمر، ووضعوا الأمور فى نصابها، ثم تعاونوا فيما بينهم على وضع ميثاق ينظم طريقة تولى الحكم،

وأشهدوا الآلهة عليه، ووضعوه فى المعبد الكبير فى حراسة الكهان والرهبان، لو فعلوا ذلك وأخلصوا النية، لما عشنا نقاسى الآلام، ونحن أحق الكائنات بالسعادة والمجد". .

والآن، ما العمل أيها الأصدقاء. . ؟؟

أنظل فى قبضة هذه الأرزاء، نكتوى بنارها، ونتجرع علقمها. . ؟؟ إن الموت لأشرف لنا. .

وأجدر بنا أن تصعد أرواحنا إلى أبينا الذى فى السماوات. . أيها الرفاق. . إما أن نحس بحياتنا ووجودنا. . بحريتنا. . وإما أن نهجر الحياة إلى الوادى الأخضر مع جدودنا العظام. . » وصمت «نورافيس»، وقد تحلب العرق الغزير على جبهته السمراء، وأطرق الأمراء فى يأس وحيرة، فهو يعلمون أن الملوك السابقين قد درجوا على هذه السياسة المجحفة، لكن ماذا يعملون هم و«نورافيس»؟ أيغيِّرون العرف والتقاليد الجارية؟؟ وكيف ذلك ومن حولهم الرماح والسيوف والعيون؟؟

ثم إنهم ثلاثون فقط، فلن يستطيعوا أن يلجئوا إلى قوتهم، ولو استطاعوا الهرب من هذا المكان، لتعرضوا للموت، ولأصبحوا طعامًا للسباع والوحوش، والأمراء لا خبرة لهم بمثل هذه الشئون المرهقة. .

إن «نورافيس» شاب متحمس واهم، ينقاد لعاطفته، ويسيره حنقه وشبابه الثائر. .

واستأنف «نورافيس» حديثه، حاثاً الأمراء على الاهتداء إلى عمل شيء ما، فليرسلوا مثلاً إلى النجاشى رسالة يظهرون له فيها خالص الود والاستسلام، وليباركوا تولية ولده من بعده ملكًا للملوك قاطبة؛ وليتوسلوا إليه بصلة القربى الإلهية؛ وحق الحياة المقدس والحرية.

[٢]

وفى منتصف الليل آب «نورافيس» إلى فراشه مرهق الروح والجسد، مكدود الأنفاس، ثائر الأعصاب، وكذلك أوى الصحابة إلى مضاجعهم وقد ازدادوا يأسًا على يأسهم، فقد أيقظ حديث «نورافيس» فيهم، وذكره للأهل والأحباب، أيقظ فيهم نائم الحزن ودفين الأوجاع، ومشاعر مضنية ما كان أغناهم عن تذكرها.

وحينما حاول النوم لم يستطع، لقد أخذت تتراقص أمام عينيه صور حبيبة إلى نفسه. . صورة أمه الملتاعة الحزينة التى ستظل ترقب مجيئه عند مطلع الشمس أو مغربها، وقد يطول انتظارها ولا يعود نورافيس إليها. . ثم صورة حبيبة قلبه الأميرة الفاتنة «ساجورا»، تلك التى قالت له غداة رحيله: «اعلم يا نورافيس أنك لى، وأنا لك، وسأقيم لك فى قلبى معبدًا أبلله بالدموع، وأباركه بالصلوات. . حتى تعود. . وسوف تعود يومًا، فالآلهة لا يعقل أن تترك بنيها يحتسون كئوس الشقاء والسهاد. . وإذا لم تعد، فسألحق بك هناك فى الوادى الأخضر حيث قصور أجدادنا

العظام أبناء الرب فى السماوات . . ولتعلم يا نورافيس أن الثبات ليس من صفة الوجود . . والملوك أجدر من غيره بظاهرة التغير والغروب . . ».

ترى أين الآن «ساجورا»؟؟

أتراها ما زالت على عهدها ، باقية على حبه تذكره ولا تنساه؟؟ هل تسفح الدموع حقيقة ، وتصعد الزفرات من أجله ، أم أن مرور الأيام والليالى ، قد أنساها ذلك الغريب الثائر فى أرض الضياع والحسرة؟؟

ولم ينم «نورافيس» طول ليلته ، لقد خرج إلى الفضاء يعد النجوم ، ويصرخ فى وجه الليل ، متسائلاً عن سر الحياة ، حائراً بين صورها المتعددة ، وأسرارها الغريبة الغامضة . .

وعندما أشرقت الشمس يا مولاى ، كانت قد اختمرت فى رأس «نورافيس» فكرة جديدة ، لكنها لا تخلو من طيش ومغامرة . .

كان زاهداً فى الملك والعرش ، ناقماً على السلطة والمطامع ، وعلى استعداد لأن يضحى بأى شىء مهما غلا فى سبيل الحصول على حريته والعودة إلى أمه وإلى «ساجورا» . .

وحاول «نورافيس» أن يصادق قائد الحرس ، ويقيم معه علاقات ود متينة ، وتناسى أنه ابن الآلهة ، وربيب الملك والعظمة ، وهل يضيره أن يصادق العبيد والخدم ، ما دام فى ذلك تفريج لأزمته ، وإطلاق لسراحه؟! ليسلك أى سبيل حتى يصل إلى ما يريد ، وبعد

ذلك يحاول أن ينسى أنه ذات مرة تبسط مع أحد أفراد شعبه، وبذل له صداقته مرغمًا . .

وكان له ما أراد . .

وكلما مرت الأيام ازدادت رابطته بقائد الحرس قوة ومتانة، وأقبل قائد الحرس على هذه الصداقة بجماع نفسه، إن «نورافيس» حفيد الآلهة يخفض له جناح الحب، ويفسح له فى قلبه مكانة مرموقة، وأخذ كل منهما يبث شكواه، ويبدى ذات نفسه لصديقه، وسحرت القائد هذه العلاقة الجديدة، واستطاع «نورافيس» بحلو حديثه، وقوة منطقه، وحدة ذكائه أن يوعز إلى القائد الساذج أنه سجين مثلهم، محروم من أهله وولده، بعيد عن «أكسوم» الجميلة التى تشبه الجنة . .

وليس ذلك فحسب، بل إن الذهب والمال الذى وضعه «نورافيس» بين يدى القائد، كان كفيلاً بأن يدير رأسه ويجعله يعيد التفكير فى المهمة المنوطة به، وفى هؤلاء الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوة . .

[٤]

وتم الاتفاق بين «نورافيس» والقائد . .

سيسلك القائد بالأمراء طريقًا يوصلهم إلى البحر، ومن هناك يركبون السفن إلى شاطئ اليمن، وسيظل القائد معهم كواحد منهم تمامًا، وسينال من الذهب والمال ما تقر به عينه، ويضمن له الحياة السعيدة، أما أولاد القائد وعائلات الأمراء فى «أكسوم»، فقد

وضعت خطة بارعة لترحيلهم إلى شاطئ البحر، فى غفلة من ملك الملوك ورجاله. . وإلا فما الفائدة فى أن يبقى الجميع فى هذا المكان المهجور حتى يدهمهم الموت غرباء مشردين بعيدين عن الأهل والحب والحرية. .

وأعدوا للأمر عدته حتى تحين الفرصة، ويأتى الميعاد المضروب. . لكن حدث ما لم يكن فى الحسبان.

لقد نزل بأخدود الأمراء جمع غفير من الجنود الأحباش، يركبون الفيلة، ويمتشقون الرماح، وفى اليوم التالى ارتحلوا فى سكون وصمت، غير أنهم قد زادوا واحداً. .

لقد أخذوا معهم «نورافيس». .

إلى أين؟؟ إلى أكسوم. . رباه ماذا حدث؟؟

ما السبب فى ذلك!؟

وحار الأمراء فى تفسير الأمر، فهم يعلمون أن من يخرج من المنفى إما إلى الشنق وإما إلى كرسى المملكة، أما عن العرش فدون ذلك ابن النجاشى ووحيده، فهو الوارث الوحيد لعرش أبيه، ولا يعقل أن يترك النجاشى الملك لابن أخيه، ويحرم ابنه منه، أما الاحتمال الثانى - الموت - فإنه أقرب إلى المنطق، وأدنى إلى الواقع، فربما أوصل قائد الحرس تفاصيل خطة الهروب إلى النجاشى، ووشى بالأمير «نورافيس» فكان ما كان.

وأطرق الأمراء حيرة ووجلاً، وانتظروا ما تأتى به المقادير..

وفوجئوا مرة ثانية بعد شهور بكوكبة أخرى من الجنود تأتى وتحل محل الحراس القدامى وقائدهم، لقد تقرر تغيير الحراس كل عام..

وعاد «نورافيس» إلى «أكسوم» عاصمة الديار، ومقر الملك، ووجد العرش شاغراً، لقد مات فجأة ابن النجاشى الوحيد، ووريث عرشه الشرعى، وبعد شهر واحد تبعه أبوه حزنًا عليه، بعد أن أحس الفراغ والحزن وضيعة الآمال فى جو الشيخوخة المحزنة، وبحث كهان الدولة ووزراؤها عن وارث جديد للعرش فلم يجدوا وارثًا شرعياً غير «نورافيس»..

وعاد «نورافيس» فى موكب رائع، موكب الملك البهيج، وقابله رجال الدولة وعظماؤها فى «أكسوم»، يحنون له الجباه، ويغضون عند رؤياه البصر، وينثرون فى طريقه الورود والرياحين، ويفرشون الأرض أمامه بالخز الأخضر..

أليس هو اليوم ملك الملوك، وابن الآلهة الموقر، ومعبود الشعب ومولاه الأوحد؟

ونظر «نورافيس» إلى نفسه وإلى من حوله.

إنه يجلس على كرسى المملكة يظلله العرش العتيق، وعن يمينه الكاهن الأكبر، وعن يساره مستشاره الأعظم، وببابه الحجاب والخدام، ويرفع «نورافيس» بصره إلى أعلى، فيلمح فى نافذة قريبة

من نوافذ القصر وجه أمه المغضن الشاحب وهى تبتسم ابتسامة الرضا والشوق. وبجوارها وجه آخر عندما رآه «نورافيس»، كاد قلبه يثب من بين ضلوعه. . إنها «ساجورا». . ما زالت كما هى ندية ساحرة. . وفية لعهدها، حافظة لذكرى ودها، «ألا ما أوفاك يا ساجورا».

***

وبعد أيام يتذكر «نورافيس» رفاقه الأمراء المنفين هناك. .

هناك بعيداً بين الأخاديد الغائرة، والهضاب الموحشة، ثم يتذكر ما كان من شأنه معهم، وخطبته فيهم، ويتذكر قصة الهرب التى لم تتم وذلك القائد الذى اندمج معه «نورافيس» ذات يوم، وتنازل له عن مجده الإلهى، ويتذكر ما يقاسيه أقرباؤه من حرمان وعذاب، فيهمس فى أذن الكاهن:

- «متى يعودون. . ؟؟».

فيرد الكاهن فى دهشة:

- «من يا مولاى؟».

- «الأمراء الغرباء. . فى الأرض البعيدة. .».

- «أحقاً ما تقول يا مولاى؟ هذا عجب. .».

- «فيم الغرابة؟؟».

- «هذا شيء لم نألفه. .».

- «لقد كنت واحداً منهم، وقاسيت ما قاسوه. . ».

- «الرأى ما رأيت يا ابن الآلهة، ومعبود العالمين، غير أنه لن يهدأ للعرش بال، ولن ينعم بالهدوء والسلام إلا إذا ظلوا بعيدين عنه، وهذا أمر درج عليه آباؤك العظام، وجدك الذى فى السماء تبارك اسمه. . ».

فقال «نورافيس» فى حزن:

- «لكن هذا شىء رهيب للغاية. . ».

فيرد الكاهن فى خبث:

- «ماذا يقول مستشار مولاى العظيم».

فيجيب المستشار:

- «الأمر لك يا مولاى، وما نحن إلا عبيدك المخلصون، لكن هذا الأمر فيه خطورة لا توصف على العرش، وعلى مستقبله، إنك تعلم يا مولاى، أن هناك كثيراً من الفلسفات والمبادئ التى لا تصلح لكل الظروف والملابسات. . كنت بالأمس واحداً منهم، أما اليوم فأنت ملك الملوك وهم أعداؤك، قد تكون الحقيقة مرة المذاق، لكننا مرغمون على قبولها. . وسياسة الأمور، وإدارة الحكم لا تخضع للعواطف والمشاعر الرقيقة. . والرأى ما يرى مولاى. . ».

وقبل أن يهم «نورافيس» بالكلام، يبرز الحاجب محنى الظهر، ويقول فى لهجة عامرة بالتقديس:

- «مـولاى . . إن الوفـود وأمـراء المقـاطعـات ، وحكام الأمم المجاورة ، قـد أقبلت مـواكـبهم لتـقدم فـروض الطاعـة والولاء ، محملين بالهدايا ، ومقدامين القرابين . . » .

ويستقبل «نورافيس» أفواج الخاضعين من عبيد البلاد والأقطار المجاورة ، وتنسيه أبهة الملك ما يقاسيه أصحابه المنفيون من عناء وغم ، وينسيه جمال الحرية ما هم فيه من ذل وعبودية ، ويصرفه بريق العرش وجلال الملك عما يتعذبون فيه من ظلام وآلام . .

[٥]

ويجلس يومًا «نورافيس» بعد أن نعم بالحياة ، والحب والملك والحرية ، ويحدث كاهنه عن ذكرياته فى الأرض البعيدة ، أرض المنفى فى أخدود الأمراء ، ويحدثه عن القائد الذى صادقه ، واتفق معه على الهرب إلى بلاد اليمن ، فتستولى الدهشة على الكاهن ويهتف قائلاً :

- «يا للجرم الشنيع ! ! إنه الكفر والعصيان . . أيجرأ ابن العبيد على مصادقة ملك الملوك ؛ وحفيد الأرباب . . ويحادثه . . ؟؟» .

ولم تكد تمر لحظات قصار حتى كان الكاهن الأكبر قد أمر بأن يؤتى بالقائد وجنوده ، وينفذ فيهم حكم الموت حرقًا جزاء الكفر والعصيان . .

وتفاديًا لهرب الأمراء من المنفى ، أمر بأن يغير الحرس كل عام ، وأن توضع الضمانات اللازمة ، حتى لا يفكر أحدهم فى التلاعب

والعبث مرة أخرى ، وكان ذلك كله طبقًا لنصيحة الكاهن الأكبر حامى حمى الدين ، والمخلص الأول للعرش ، وللملك الملوك . .

❊❊❊

وتدق الطبول يا مولاى شهريار . .

وتعزف المزامير . .

وتنحنى الجباه . .

ويصلى الشعب ويضرع حتى يحوز الرضا من «نورافيس» وارث ملك سليمان بن داود ، وحفيد الآلهة الأطهار الأخيار .

وأدرك شهرزاد الصباح . .

فسكتت عن الكلام المباح .

●●●

«... إن عواطفنا مجنونة لا تعترف بالتقاليد، ومشاعرنا كثيراً ما تغلبنا على أمرنا.. وتلهو بنا..»

الشيطان الشاطر

حينما تواريت داخل البيت المتواضع، الذى يسكنه أخى «محمد»، أحسست تواً بالجو الكئيب، الذى يظلل كل ركن من أركانه. . الصمت، الذهول، الحزن. كلها كانت تتآلف، وتوشح كل ما يقع عليه عينى فى البيت، وسرعان ما انتقلت هذه الأحاسيس الشاحبة إلى قلبى فتوالت ضرباته، وشعرت بميل للبكاء، لكن كيف أبكى وقد أتيت إلى هنا للمواساة، والتخفيف من هول الكارثة التى نزلت بزوجة أخى؟؟

وفى الصالة وجدت الأوانى المنزلية ملقاة بإهمال، دون أن تتناولها يد بالتنظيف والتنسيق، ووجدت الكنبة ذات الفراش الممزق ملجأ للدجاج الذى لم يجد من يذوده عنها، فوقفت فى تكاسل واطمئنان وبدا لى أيضاً أن حيطان الصالة باهتة كالحة، أكثر من ذى قبل، وهناك فى نهاية الصالة، كانت تجلس «بهيجة»، وحولها أولادها الأربعة ثلاث بنات وطفل، كلهم دون العاشرة، وكانت «بهيجة» غارقة فى ملابسها السوداء، وعيناها محتقنتان من كثرة البكاء، والشحوب قد نسج وشاحه المقبض على ملامحها، فأوحى ذلك إلى نفسى بمعانٍ جديدة

تعسة غير تلك المعانى التى كنت أستشعرها من قبل إذا ما نظرت الخوف والحيرة والارتباك، وأحسست لأول وهلة، كأن هناك سيمفونية حزينة تبعث بتقاسيمها المفعمة بالألم من حولى، وسرت ناحية الكنبة ثم طردت الدجاجة الواقفة عليها، كى أتخذ مجلسى هناك . .

ومرت علىّ فترة صمت قصيرة، أدركت خلالها أن هذا الجو الثقيل يضغط على صدرى، ويوشك أن يحبس أنفاسى، فقلت فى لهجة خافتة أسيفة:

«أرجو ألا تحزنى . . قضاء أخف من قضاء . . من يدرى؟؟ لعل الخير كل الخير فيما حدث . . ».

ولم تتحرك «بهيجة» من مكانها، أو تبدى أدنى رغبة فى فتح باب الحديث لهذا ظلت لائذة بالصمت، تاركة العنان لدموعها كى تنحدر فوق خدها فى سكون بليغ، لقد كانت المصيبة فوق الاحتمال، وكانت مفاجأة مفجعة مزلزلة، فكان لها وقع الصاعقة لا على «بهيجة» وحدها، بل على أفراد الأسرة كلها . .

وأثرت فىّ هذه الصورة المرتسمة أمامى أشد التأثير، وأحنقنى هذا الظلم الفادح الذى وقع على أخى «محمد»، وزاد حنقى وأنا أنظر إلى هؤلاء الضحايا المساكين- أعنى زوجته وأولاده- وسيطر علىّ آنذاك شعور غريب جامح . . شعور يدفعنى لأن أهب واقفًا ثم أنطلق فى الشارع أسب . . وألعن . . وأحطم . . بل وأقتل كل من

يقابلنى ، لأن الدنيا كلها كما بدا لى تناصب أخى البائس العداء دون ما جريرة . .

وأفقت من أفكارى الدموية الشاذة على صوت «بهيجة» الباكى وهى تقول :

- «عشر سنوات أشغال شاقة؟؟؟» .

فأجبتها فى غيظ :

- «أجل . . ذلك منطق العدالة المزعومة» .

فزمجرت فى حدة وعصبية وهى تلوح بيدها المتشنجة .

- «إنه لم يقتل» .

- «أعلم ذلك» .

- «ولم يسرق» .

- «لكنه كان ضمن الهاتفين بسقوط الملك فى ذلك اليوم المشئوم ٢٦ يناير» .

- «إنهم مجانين . . » .

- «أجل . . ومعهم الملك» .

فقالت وهى تصر على أسنانها ، وتشد ثيابها .

- «لا أصدق أن محمداً يشترك فى ثورة ، إنه عامل بسيط من عمله لبيته . . مسكين وصاحب ولايا . . حكمتك يا رب» .

- «إنها الأقدار التى دفعته دفعًا لكى يسير فى شارع فؤاد، ويختلط بالجماهير الصاخبة، وفى مثل هذا الضجيج والاندفاع، ينسى الإنسان نفسه، ينسى كل شىء إلا التدفق والاندماج فى التيار الزاخر..».

- «لكن أيكون جزاؤه السجن عشر سنوات؟؟ أيخربون بيته؟».

وتصورت أخى «محمدًا» ذا الخمسة والثلاثين ربيعًا بعوده المنحنى، فقد كان ذا قتب، وجسمه الممتلئ، وحرصه على دينه وبيته، وإخلاصه لزوجته وأولاده، وحياته المليئة بالجهاد والصبر فى سبيل لقمة العيش، تصورته وهو فى الليمان بملابسه الزرقاء، ثم وهو يقتطع الحجر فى الجبل تحت الشمس أو فى زمهرير الشتاء، كل ذلك من أجل وجوده ضمن المتظاهرين بمحض الصدفة فى شارع فؤاد، حيث ارتكبت بعض جرائم السلب والحرق والاعتداء على الأرواح. تصورت كل ذلك فهتفت من أعماقى:

- «رحمتك يا رب».

وبعد انقضاء السهرة وعودتى إلى بيتى. كنت أفكر تفكيراً جدياً فى مستقبل هذه الأسرة، كيف تحصل على لقمة العيش؟؟ ومن زين لها الكساء اللازم؟ وكيف تدفع إيجار المسكن؟ أنا عامل بسيط مثل أخى محمد- وهو أخى من الأب فقط- وفى الوقت نفسه أنا أنوى الزواج، وأبحث لى عن خطيبة، فقد بلغت الثانية والعشرين، فماذا أنتظر بعد ذلك..؟

وعندما وصل تفكيرى إلى هذه النقطة بالذات- نقطة الزواج- هجمت علىّ أفكار غريبة . . قذرة . . لأنى أستحيى أن أذكرها فى هذا الوقت خاصة . . ماذا أقول؟؟

إن فينا عنصراً من عناصر الشر . . أو الضعة ، أو سمة حقارة إن شئت . . الدليل على ذلك أننى وأنا ذاهب لمواساة أسرة أخى كنت أفكر فى «بهيجة» تفكيراً شغل حيزاً كبيراً من عقلى الواعى ، واحتل كل عقلى الباطن لكننا لا نسمح لألسنتنا بأن تفوه إلا بما يتفق مع العرف والتقاليد ، لهذا كظمت كل شىء وتكلمت عن كارثة أخى ، ولم أشر بحرف واحد إلى كارثتى أنا . . لأنى أحب «بهيجة» من زمن بعيد ، أحببت فيها كل شىء : عينيها . . هدوءها ، تقاطيعها . . روحها الخفيفة . . حيويتها . . شىء واحد لم أحبه فيها وهو : «إنها زوجة أخى» . . فضلاً عن أنها تعاملنى كأحد أطفالها رغم اقتراب عمرى من عمرها . . وهذا ما كان يكاد يجننى ، وكنت أكتم هذا الحب فى قلبى ، وأحيا بين جنته وناره . .

وماذا أعمل؟؟ إن عواطفنا مجنونة لا تعترف بالتقاليد ، ومشاعرنا كثيراً ما تغلبنا على أمرنا وتلهو بنا . . ؟؟ هذا ما لمسته بنفسى . . سمّه حقارة . ضعة . . شراً . . أو كما تشاء . . فهذا هو الواقع المر الذى قاسيت منه الكثير . لكن حذار أن تحسب أننى ميت الضمير ، خسيس الطباع ، فأنا لم آخذ الأمر ببساطة ، ولم أستسلم لعاطفتى استسلامًا كاملاً ، بل كانت نفسى ميدان صراع عنيف لا يهدأ ، وقصارى ما استطعت أن أفعله هو تجنب لقاء «بهيجة» ،

وسـاعـدنى على ذلك أنهـا- كـمـا بدا لى- كـانت تحب أخى وفى الوقت نفسه كانت متدينة وتنظر إلىّ نظرة الأم إلى ولدها، ومع ذلك فلم تبرد شعلة عاطفتى ولم ينطفئ توهجها، بل ظللت أحلم، وأحلم الليالى الطوال ببهيجة. . بشبابها الريان الدافئ. . بأنوثتها بكل شىء فيها. . وظل دأبى هكذا حتى قبضوا على أخى يوم حريق القاهرة فشعرت بنشوة خبيثة تهز كيانى، وتسكر روحى، وبرقت الآمال فى سمائى المظلمة. . هذا شىء مخجل حقاً، لكنه حدث حقيقة، ومن ناحية أخرى كنت أرثى لمصير أخى وأحزن من أجله، ولست أدرى كيف اجتمع هذان الإحساسان المتناقضان فى قلب واحد. .

كانت الأيام تمر، وكنت أنا فى شبه دوامة عنيفة تدور بى دورانًا مجنونًا، وسهراتى أقضيها فى مسكن أخى كل ليلة بحجة الاطمئنان على الأولاد والسهر على راحتهم. . فهذا واجب مقدس متعارف عليه، ورويدًا رويدًا كنت أرفع عينى وأتأمل محاسن «بهيجة»، وكنت أزداد جرأة وتبسطًا فى الحديث معها بمرور الأيام، وكانت ذكرى أخى الذى يقضى أيامه فى الليمان تبهت شيئًا فشيئًا. . هأنذا ألقى نكتة فيضحك لها الأطفال. وها هى «بهيجة» تبتسم، فتبدو أسنانها البيضاء النظيفة، وتتورد وجناتها. . وها هو إحساسى بالرغبة فيها يزداد. . ثم هاهم الأطفال ينامون. . إن نفسى تحدثنى بأشياء كثيرة «هل أنا نذل لأنى أبيح لنفسى مثل هذه الآمال المعربدة؟؟. . بلا شك». . لكن كنت أسير بقوة دافعة تحتدم فى روحى وكيانى

كله . . أوه . . ما أشد إغراءك يا بهيجة . . الأضواء باهتة . . والليل ساكن . . والأطفال نيام وشبابنا متوهج ثائر . . ماذا بقى بعد ذلك . . ؟؟ أقبلها؟؟ كلا إنها متدينة يجب أن أسلك سبيلاً آخر . .

لكن هل الظروف مناسبة الآن؟؟ إن ضيق ذات اليد قد دفع «بهيجة» لأن تمد يدها للجيران، وتؤدى بعض أعمال التطريز والحياكة للناس مقابل أجر، ومساعداتى لها تافهة . . إنها فى ضائقة مالية شديدة، لكنها مع ذلك ما زالت محافظة على صلاتها، مقدسة لذكر زوجها الذى يعيش وراء القضبان ولا تفتأ تردد :

- «إن زوجى من المجاهدين فى سبيل الله» . .

- «دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب . . وسيطلق الله سراحه يومًا ما . . » . .

- «إن مع العسر يسراً» .

وكلما سمعت منها هذه العبارات المتكررة تراجعت خطوات إلى الوراء، وعاد الجبن يسيطر على تصرفاتى فأنكمش وأعود أجتر أحلامى وأغانى هواى السجين . قلت لها ذات مرة، وكأنى ألقى إليها بحديث عابر حتى لا أثير شكها :

- «أتنتظرينه عشرة أعوام»؟؟

فقالت فى نبرة استسلام حزينة :

- «الأمر أمر الله . وهو أرحم بعبده من أى مخلوق» .

وهكذا ظللت شهوراً طويلة نهبًا للقلق، يدفعنى هواى إليها ويذودنى خوفى بعيداً عنها، لكننى آخر الأمر تجاهلت الموانع القائمة والحواجز الصعبة التى بينى وبينها، وهكذا نحن كثيراً ما نخدع أنفسنا ولا نعبأ بالمنطق السليم إذا ما ساقتنا العواطف، وألحت علينا فى الوصول إلى بعض أغراضنا، وسرعان ما أرسلت امرأة أثق فيها إلى «بهيجة». . أجل. . أرسلتها لتخطب لى «بهيجة»، وتحرضها على الطلاق من زوجها. . من أخى «محمد»، وكانت حجتى فى ذلك أننى أغار على شرف أخى، وأننى أريد أن أرعى أبناءه وأحميهم، لأن عشرة أعوام ليست بالقصيرة أو بمعنى آخر ألبست رغبتى الكامنة فى الزواج من «بهيجة» ثوبًا آخر غير ثوبها الحقيقى. . ألبستها ثوب الغيرة. . والشهامة والعطف و. . و. . إلخ، لقد كانت خطتى تلك ساذجة. لكن ماذا كنت فاعلاً غير ذلك؟؟

وعاد الرسول يخبرنى بأنها سترد على مطلبى مساء اليوم التالى، وحينما جلست أمامها فى مساء اليوم التالى كنت منكس الرأس، خافض النظرات، كنت كالتلميذ المبتدئ الخجول أمام مدرس قدير قد مارس المهنة، أو كنت كالعذراء التى غلبها الحياء فارتبكت وتضرجت وجنتاها بالحمرة. . رغم شاربى الأسود الغزير، ولحيتى التى أحلقها من يوم لآخر. . أهذا يليق برجولتى؟

وكانت «بهيجة» فى هذه الليلة ترتدى ملابسها السوداء، وكان فى عينيها تحدٍّ وقوة قاهرة. . وملامحها تنطق بأشياء كثيرة.

قالت «بهيجة» فى لهجة ذات معنى :

- «إننى سعيدة بلفتتك الكريمة . . وعطفك الكبير» .

فسكتُّ ولم أجب بشىء ، لكنها واصلت قولها :

- «لكن لِمَ لم تفاتحنى أنت فى الموضوع؟ إنها مسألة بسيطة» . . وبعثت فى نبراتها الأخيرة شيئًا من الشجاعة التى كدت أفقدها ، فقلت :

- «فعلاً . . لا أقصد من وراء ذلك إلا تربية الأولاد تربية معقولة ، والمحافظة على كرامة البيت . . لكن هذا أمر لم أستطع مفاتحتك فيه بنفسى وإن كان يراودنى منذ زمن بعيد» .

- «من زمن بعيد» !؟؟

خفضت رأسى ، وقد سيطر علىَّ انفعال شديد ، وقلت فى صوت مرتعش :

- «أجل» . .

- «أتعتقد أنك ستكون سعيدًا مع أم لأربعة أطفال» ؟

فقلت مؤكدًا :

- «منتهى السعادة . . إنى على استعداد لأن أبذل روحى من أجلك» . .

فضحكت «بهيجة» وقالت :

- «أتعزنى لهذا الحد؟».

فقلت وأنا كالحالم، ونظراتى تائهة فى عينيها الجميلتين:

- «بل أحبك لدرجة العبادة»..

ولم أفق من أحلامى إلا على صفعة ترن على وجهى، ففغرت فمى لحظة وأنا أنظر إلى «بهيجة» وقد اكتسى وجهها بسحنة غاضبة متنمرة، وسمعتها تصرخ مهتاجة:

- «كلكم ذئاب.. الأخ يريد أن يأكل لحم أخيـه.. يا له من منظر بديع حينما يعود أخوك ويرانى بين أحضانك أيها النذل.. أقسم لأقصن عليه كل شىء وهو فى السجن.. اسمع.. لا ترنى وجهك هنا ثانية».

كيف فعلت ذلك؟؟.. كيف تصرفت هذا التصرف؟؟ لقد بدا لى تصرفى شنيعًا رهيبًا، وأحسست أنى وصمت بذل الأبد، وعار الحياة الذى لا يزول.. لقد صحوت على صفعتها من كل هواجسى وأحلامى، يا للخيانة!!!!

لقد كنت أطلب أبهظ ثمن لعطفى على أسرة أخى بالقليل.. صحيح أنا ذئب.. بل كلب حقير.. أين أذهب؟؟ كيف أمسح هذه الخطيئة الكبرى؟؟ ماذا أقول له؟ أقول لقد حاولت أن أسرق زوجتك، وأستغل ضعفها النسوى، وضيق يدها، لكنها كانت أقوى من الإغراء والمال، وأقوى من الألم والكوارث.. كانت خير أمينة على عرضك وكرامتك؟؟

وزاد ارتباكى حينما صدر العفو عن أخى ومن معه بعد مضى شهور قليلة حين سقط الملك ، ومع ذلك فقد كنت فى انتظار «محمد» عند باب السجن يوم الإفراج . وحينما بدا وأقبل نحونا اندفعت إليه أقبله وأنا أبكى ، ثم انحدرت إلى قدميه أقبلهما أيضًا وأبللهما بالدموع ، كنت أريد أن أمسح خطيئتى ولم أكن أدرى كيف أفعل ذلك .

وابتسمت «بهيجة» وقالت :

- «كفى» . .

ثم همست فى أذنى : «لم أخبره بشىء» .

وأثارنى حسن تصرفها وقوة خلقها ، فقلت فى لهجة خطابية :

- «يا محمد . . احمد الله . . لقد رزقك الله بأعظم زوجة فى الوجود» .

ومشى الموكب الصغير - أنا وهو وهى والأطفال - نحو بيتهم ، كنا كقافلة متعبة أنهكتها العاصفة ، ثم صفا الجو ، وسارت القافلة فى طريقها من جديد ، وعفا الله عما سلف . .

●●●

«.. إن الأحداث غالبًا ما تخلقنا خلقًا جديدًا..»

رجل البيت

كان أبى ناظر محطة القرية، ولم يكن ذلك بالمنصب اليسير، لأنه جعل من أبى واحدًا من الثلاثة المرموقين فى القرية، فهو صديق ضابط نقطة البوليس، كما أنه كثيرًا ما كان يقضى أوقات فراغه مع حضرة العمدة.. وكنت أنا فخورًا بذلك كل الفخر..

شىء واحد كان يضايقنى ويملأ حياتى بالخوف والرهبة، ويورثنى مزيدًا من الجبن، ويجعلنى أستشعر مذاقًا مرًا لأيامى الوجلة، وكنت أنا أضعف من أن أتصدى لهذا الشىء، أو على الأقل أتجاهله.

وماذا يعمل شاب فى السادسة عشرة من عمرها بمدرسة الصنايع أمام أب قاس، عابس الوجه، جامد الملامح، لا يحسن التفاهم إلا بالعصا والصفعات والكلمات القاسية، ويعتبر الترفيه ميوعة، والفسحة فراغًا وضياعًا، ولعب الكرة خيبة وانحطاطًا، لأنه يؤمل من وراء ولده الكثير..

سامحك الله يا أبى، إنى لا أذكر مرة واحدة أنك سمحت لى باختيار لون الثوب الذى يروق لى، وكان علىّ أن أطيع، مثل جاموسة تجر النورج وتدور فى محيط ضيق محدود تلهبها سياط صاحبها إذا ما توانت أو تراخت..

أليست هذه حياة مملة سقيمة تثير أبشع وأعجب الانفعالات والانحرافات؟!

وكان أبى فى أوقات نادرة جداً، يحاول أن يدخل فى روعى إما مباشرة أو عن طريق أمى، إنه لا يلجأ إلى هذه القسوة إلا لدقة موقفه، وحرج مستقبل الأسرة، لأنى كنت الرجل الوحيدة الذى سوف يخلف أبى فى رعاية أسرة مكونة من أم وأختين، إذا ما اختطفت يد المنون أبى فى يوم من الأيام لا قدر الله، فكان لا بد من إرهاقى والقسوة علىّ، حتى أذاكر وأذاكر . . لأن النجاح أمر ضرورى، والأسرة كلها تنتظر اليوم الذى سوف أنال فيه وظيفة.

لكن هل أجدى هذا الأسلوب؟؟

كنت أذاكر، وأحاول أن أقضى أطول فترة ممكنة خلف مكتبى وكراساتى مفتوحة أمامى، غير أنى كنت أحس بنظرات أبى الجافة المتوعدة، وكأنها تلازمنى فى حجرتى إذا ما ذاكرت أو نمت أو خرجت إلى الشارع، وأحس كأن هناك يدين غليظتين تضغطان على عنقى دائماً، وشبح الامتحان يلازمنى ليل نهار، حتى فى أحلامى المنزعجة المضطربة، والخوف من نتيجة آخر العام يلقى على وجهى وفى قلبى الغض ظلالاً كئيبة مقبضة . .

وإنى لأشعر حتى اليوم بالخجل كلما تذكرت عرقى الذى كان يغمرنى وأنا فى لجنة الامتحان، وكلما تذكرت . . آه ما أقسى ذلك! أقصد كمية من البول تنفرط منى رغماً عنى، فتزيدنى ارتباكاً

وخجلاً، هذا بالإضافة إلى النظرات المخيفة التى كان يخيل إلىَّ أنها تطاردنى فى لجنة الامتحان..

وكانت النتيجة فى أغلب الأحيان هى الرسوب..

أجل.. الرسوب، وأبى يزداد تعنتًا وقسوة، ومخاوفى تنمو وتترعرع، وثقتى بنفسى تتضاءل وتضمحل. ومقتى للمدرسة يزيد يومًا عن يوم حتى أصبحت كالسجن الرهيب.. لكن أمى فى هذه الأثناء كانت عاملاً ملطفًا..

كانت إذا ما رأت خيبتى الثقيلة، وحظى النحس الذى لم يضارعنى فيه أحد مصمصت بشفتيها، وتنهدت فى حسرة وإشفاق وهى تهمس:

- «قسمتى ونصيبى..».

فأخفض رأسى، وأترك العنان لدموعى فى صمت واكتئاب، بينما هى تواصل قولها:

- «ماذا تنتظر يا مقصوف الرقبة؟؟ أتظن أن أباك سوف يعيش لك إلى الأبد، أم تنتظر أخواتك البنات حتى ينفقن عليك؟ ألا تخجل من نفسك يا طويل يا هايف..».

كان هذا قصارى ما تفعله أمى، إن قلبها يتنزى ألماً وحزنًا من أجلى ومن جراء تعرضى لتعنيف والدى وقسوته، وثورته التى كانت تقلب البيت إلى مأتم بغيض. على النفس، وفى الوقت نفسه كانت تذهب إليه وتصب فى أذنيه كلمات العزاء والصبر:

- «الأمر أمر الله».

- «قضاء أخف من قضاء . . ».

- «ربما ينفخ الله في صورته . . من يدرى».

- «لتدعُ له فقد ينصفه الله في المرة القادمة».

ولم تكن هذه الكلمات لتثنى أبى عن خطته، أو تجعله يحيد عنها قيد أنملة، العصا هى العصا. والكلمات القاسية لم تتغير، والنظرات الجامدة المخيفة على حالها. كلما تقابلنا فى الطريق، أو التقينا على مائدة الطعام، حتى خُيِّل إلىّ أن أبى يضطهدنى ويكرهنى أفظع الكره وأبشعه، وأنه قد اتخذ منى عدواً خالدًا دون الناس جميعًا.

وفى هذا الجو الخانق المكفهر حدث تحول عجيب فى حياتى. أنا نفسى لا أدرى كيف حدث هذا، ولا أستطيع أن أوجد له تعليلاً كافيًا . .

أتعتقد أننى بصورتى الراهنة، ووضعى الحالى على استعداد لأن أخوض تجربة حب . . أجل حب عنيف؟؟!

كل ما أذكره أن «نعيمة» كانت حلوة . . وادعة . . رقيقة، وكانت من أبدع حائكات الملابس فى القرية على الإطلاق رغم صغر سنها، ورقة حالها، وكثيراً ما كانت تتردد على بيتنا لإنجاز ما تطلبه أمى وأختى، ثم تطورت علاقة العمل إلى لون من الصداقة بين الأسرتين، فكان التعارف وكان التزاور . .

الحقيقة أن «نعيمة» ملأت قلبي، وحياتي وكياني كله بنشوة جارفة، مما جعلني أعيد النظر في المرآة إلى شاربي النامي، وشعري الذي بدأت في تنسيقه وترجيله بطريقة أكثر دقة واهتمامًا، وهندامي وطريقة مشيي وحديثي وجلوسي..

لقد كانت تربّت عليّ في حنان، وتناديني باسمي في مودة وتقدير، لا كما كان أبي يناديني: تعالَ يا ولد.. روح يا ولد.. خذ هنا يا لوح يا بهيم.. » كان الفرق شاسعًا، وما أجمل ابتسامتها التي تمنحها لي إذا مرت بي وأنا «ملطوع» على باب البيت في انتظار زيارتها، وكم ملأني الفخر، وغمرتني السعادة حينما قالت لي ذات مرة:

- «ألن تزورنا الليلة، وتشرب عندنا الشاي؟؟».

وكانت أول مرة أزورها في بيتهم دون أن تصحبني أختي أو أمي، وعاملوني في بيتهم كضيف عزيز.. كرجل كامل الرجولة، كنت أتكلم فينصتون لي باحترام، وكنت أجاذبهم الحديث في مودة ومرح وانطلاق.. ولعل رقة حالهم، وتواضع مركزهم الاجتماعي بالنسبة إلى أبي، قد بثا في قلبي شيئًا من الجرأة والشجاعة فسرت في الطريق وتكررت مثل هذه الزيارات الفردية..

وكنت أخرج من هذه الزيارات، وأنا أسبح في أجواء أخرى، توشيها الأحلام ونشوة الشباب، وأطياف اللذة البريئة التي يكون

مصدرها لمسة من يدها جاءت عفواً، أو ابتسامة مشرقة نابضة . . ووالدى . . هل نسيته أم أنه هو الذى نسينى؟؟

كلا . . العصا هى العصا ، والكلمات القاسية لم تختف ، والنظرات الجامدة المخيفة ما زالت تلاحقنى ، لكن . . لم أكن أشعر بألم يذكر حينما كانت العصا تنزل فوق جسدى ، وكنت أتغاضى عن الكلمات القاسية ، وأغمض العين عن نظراته الخانقة الجامدة ، كان الحب يوشك أن يجعل منى قديسًا يستعذب النار والجوع والمسامير والعذاب كما يفعل فقراء الهنود ، ولا بأس من أن أكون شهيداً ، وهل أجد ميدانًا أسمى وأقدس من ميدان الحب كى أستشهد فيه . . ؟؟

هذا ما صوره لى خيالى . .

والآن ماذا أعمل؟؟

إن روحى ظامئة تنشد المزيد من هذا الحب ، كما أنى لا أطيق البعد عن نعيمة مدة طويلة ، وأحس فى جسدى رغبة تصرخ وتلح . . وأنا أخاف الله . . فلا بد إذن من أن أتزوج نعيمة . .

يا خبر أسود . .

إن أبى لا شك سوف يهم بذبحى كما تذبح الخراف ، أو يضعنى تحت عجلات القطارات التى يشرف عليها ، وهكذا ظللت أيامًا وليالى أفكر تفكيراً متصلاً ، وخلال نوبة من نوبات الشجاعة التى كانت تدهمنى فى فترات قليلة من حياتى ، أقدمت على عمل لا يأتيه إلا فدائى من الطراز الأول . .

كان أبى يجلس على سجادة الصلاة بعد صلاة المغرب. يغمغم بالتسبيحات والصلاة على النبى؛ فمشيت إليه فى خطو رزين هادئ، وكنت أشعر فى هذه اللحظة أن كل أخطاء أبى السالفة قد محيت من نفسى محواً تامًا، وألقيت عليه السلام، ثم قبلت يده، وجلست جواره فى خشوع وتأدب كما يجلس العابد قبالة تمثال العذراء، وهمست فى رقة..

- «تسمح يا أبى؟؟».

- «قل يا ابنى.. لا تخف..».

فقلت فى تلعثم:

- «أتعشم أن تزوجنى نعيمة.. نعيمة الخياطة..».

فحملق فىَّ مندهشًا لفترة وجيزة، خُيِّل إلىَّ أثناءها أنه سوف ينشب أظافره فى عنقى ويغتالنى؛ لقد ندمت لحظتئذ. كنت نهبًا للافتعالات المختلطة العنيفة؛ أو كنت كمن ينتظر الحكم عليه بالإعدام أو بالبراءة، وهز أبى رأسه أخيراً. ثم قال:

- «أهذا ما تريده؟؟ أمر سهل للغاية.. سأزوجك نعيمة.. وسوف أخطبها لك الليلة إن شاء الله..».

لم أكن أصدق أذنى عندما سمعت منه هذا الكلام، أهكذا تبتسم لى الحياة دفعة واحدة، ويشمل أبى هذا الانقلاب الخطير الذى جعله أشبه بالصديق المخلص العطوف منه إلى الأب القاسى

الجامد. وخُيّل إلىّ أنى أتسامى إلى أجواء حلوة، وردية الألوان كلها أنغام. . وحب وسعادة. . وأحلام، فلم أتمالك نفسى أن هويت على يدى أبى لثمًا وتقبيلاً، لكنه كان ينتزعها منى ويقول: «العفو يا ابنى»، ثم تسللت فى خفة. . إلى أين؟؟ إلى «نعيمة». لأخبرها وأخبر أمها بالنبأ العظيم، إن أبى ناظر المحطة سيزورهم بنفسه، وسيخطب نعيمة لى، من كان يصدق ذلك!؟ أنا نفسى لا أصدق، لكن أبى لا يكذب، ولو لم تطب له الفكرة لكسر رأسى بحذائه، لكنه ابتسم وأشرق وجهه، أترانى واهمًا؟؟ وأم نعيمة هى الأخرى ساورها الشك فيما حملته إليها من أنباء، واعتبرتنى غرآ أحمق، لكنى أقنعتها فى حماس، فأفاقت من دهشتها، وهبت واقفة هى وابنتها لتنظيف البيت وتنسيقه، وإعداد السكر والشربات، وإطلاق الزغاريد، وحمل النبأ السعيد إلى الجيران.

وجلست أم نعيمة فى انتظار أبى، أما أنا فقد ذهبت إلى الحجرة المجاورة التى يستأجرها بعض رفاقى الطلبة، وكان من السهل علىّ أن أرى ما يجرى فى حجرة أم نعيمة كما أنه من السهل أيضًا أن أسمع كلام أبى، وكل ما سيدور فى الجلسة «التاريخية» التى أتشوق لها خلال نافذة صغيرة فى أعلى الحائط. .

***

إن الانتظار شاق أليم، وخاصة أن أعصابى كانت مرهقة لدرجة كبيرة، وجسمى كله ينتفض انتفاضًا ونبضات قلبى تهزنى هزآ

عنيفًا، فلا أكاد أستقر على وضع، أجلس.. ثم أقف.. ثم أقطع غرفة أصدقائى ذهابًا وإيابًا.. وبعد ذلك أسرع إلى النافذة الأخرى المطلة على الشارع لأراقب مجيء والدى.. يا إلهى إنها ساعة قاسية رهيبة.. بعد قليل سأصبح عريسًا، وستصبح نعيمة الحلوة المرحة، المتدفقة كأنها النبع الفياض الساحر، ستصبح ملكًا لى وحدى.. يا لها من سعادة لا أكاد أحتملها لأنها كما يبدو أكبر منى. غير أنى نسيت أمرًا مهمًا، ماذا دهانى؟؟ لماذا لم أخبر أمى؟؟ يالى من عجول متسرع «لكن قطعًا سوف تأتى مع أبى»..

وأخيرًا وصل أبى، وفى خطوات متثاقلة متئدة قصد إلى باب أم نعيمة، فاستقبلته هاشة مبتسمة.. إن الأمر جد خطير.. ولم يكن «لعب عيال» كما توهمت من قبل.. وعيون الجيران تطل فى فضول وشغف إلى أبى- ذلك الأفندى المرموق- وهو يدلف إلى بيت أم نعيمة المتواضع.

وزملائى سكان الحجرة فى هرج ومرج، يتسابقون إلى إزجاء التهانى الحارة إلىّ.. إلىّ أنا.. ولم لا؟؟ ألست منذ الليلة عريسًا «قد الدنيا» وسيشار إلىّ غدًا بالبنان، ويقول: «هذا عريس نعيمة الجميلة».

كان أحدهم يقبلنى من رأسى ويقول:

- «والله نلتها يا عكروت..».

وآخر يقول متخابثًا:

- «من كان يصدق أنك متيم! ياما تحت السواهى دواهى».

وثالث يرقص ويغنى:

- «كتبوا كتابك يا نقاوة عينى».

فيعلق الأول ساخراً:

- «الحب بهدلة.. ربنا ما يوريكم».

فيتعرض صوت محتد:

- «فال الله ولا فالك يا شيخ..».

أما أنا فكنت فى شغل شاغل عن ذلك كله، كنت أنظر إلى أبى وإلى أم نعيمة، وكلى آذان صاغية، وطال صمت أبى، فلم تجد أم نعيمة بدآ من تكرار عبارات المجاملة المعهودة:

- «زارنا النبى..».

فيرد أبى فى اقتضاب:

- «الله يحفظك..».

وهمست أم نعيمة:

- «لِمَ لم تشرفنا الست هى الأخرى وتحضر معك؟؟».

فرمقها أبى بنظرات عجيبة..

نظرات كتلك التى كان يرمقنى بها من قبل، والتى لا أستطيع

أن أنساها، وكانت المرأة تنتظر منه الإجابة على أحر من الجمر، وكنت أنا أكثر منها تلهفًا وتشوقًا:

وأخيرًا نطق أبى بلهجة صارمة جافة:

- «اسمعى يا أم نعيمة..».

- «خدامتك يا سيدنا البك..».

- «لندخل فى الموضوع مباشرة..».

وصمت برهة ثم استطرد:

- «ألم تجدوا غير هذا المجنون كى تسخروا منه، وتضحكوا عليه وتزيدوا خيبته..؟؟».

- «أ..أ..».

فقاطعها محتدًا:

- «اصبرى حتى أنتهى من كلامى.. أريد أن أقول كلمة واحدة لا غير، وأرجو أن تتمعنى فيها، لا أريد أن أراك أنت أو بنتك فى بيتنا مرة ثانية.. مفهوم..؟».

وفغرت المسكينة فاهها من الدهشة، بينما واصل أبى حديثه:

- «ولو دخل هذا الولد المجنون بيتكم مرة ثانية فسوف أطردكم من البلد طردًا..».

ولم تستطع المرأة أن تجيب، بينما اتجه أبى بخطواته الرزينة المتثاقلة ناحية باب الحجرة، أما أنا فقد تهاويت فى مكانى، وأصدقائى من حولى يسندوننى، ويرمقون وجهى الشاحب، وجبينى الذى يتصفد عرقًا، والدموع المتحجرة بين جفونى فى رثاء وإشفاق . .

***

ولم أعد إلى بيتنا إلا فى ساعة متأخرة من الليل، وحينما اقتربت من الباب تذكرت أن أمى هى التى سوف تفتح لى كالمعتاد، وأخذت أفكر فيم ستقوله لى، وفى شعورها إزاء الكارثة التى حلت بى، وعندما فتح الباب وخطوت إلى الداخل، تهاوت على وجهى صفعات أبى ولكماته، لم تكن يد أمى الحانية هى التى فتحت لى الباب هذه المرة، لكنه أبى الذى أصدر تعليماته بألا يفتح الباب أحد سواه، وحينما وقعت على الأرض أحسست بعصا ترن فوق قفاى، أما الكلمات القاسية فقد ماتت على شفتيه، غير أنى سمعت أنينًا خافتًا ينبعث من بعيد، لم أخطئه لأنه كان صادراً عن قلب أمى التى أقسم عليها أبى يمينًا بالطلاق ألا تتدخل فى الأمر . .

***

الغريب أننى نجحت فى نهاية ذلك العام، كنت أحاول أن أنسى حبى بين صفحات الكتاب . بعد أن خلقتنى التجربة خلقًا جديداً، لكن أبى المسكين مات فى نهاية العام أيضًا . .

وتلفت حولى فلم أجد بالبيت رجلاً غيرى، ورأيت بجوارى أختين وأماً فى حاجة إلى العون والرعاية فشعرت بالتبعة الكبرى رغم حداثة سنى، لأن الأحداث غالبًا ما تخلقنا خلقًا جديداً . .

ومن ثم لم أفكر فى الزواج بعد أن أصبحت أستمتع بكامل حريتى، لقد أصبحت رجل البيت، وهذا عبء كبير . .

●●●

«إنى أسـائل نفـسى هل بين مـهدى ورمـسى
إلا ثـمـالة كـأس مـحـمـومـة بالأمـانى
أو قبضة من رماد»

اللحظات الأخيرة

- «دعوه لينام فى هدوء. . . يؤسفنى أن أقول إنها اللحظات الأخيرة».

نطق الطبيب هذه الكلمات دون أن يبدو على وجهه تعبير آخر، ثم هرول إلى الخارج زاعمًا أن وراءه موعدًا مهمًا، بينما وقف أفراد البيت فى وجوم، كان فى عيونه أكثر من معنى، وفى قلوبهم دموع تتنزى، وعلى وجوههم أسف عميق؛ ثم تفرقوا دون أن ينطقوا بكلمة.

أما الشيخ المحتضر، فقد كان فى السبعين من عمره، وكانت أنفاسه المتلاحقة تنبى عما يعانيه من آلام، وتؤكد فى الوقت نفسه أن الساعات الأخيرة قد أوشكت على نهاياتها.

وفتح الشيخ عينيه ثم همس:

- «أحس أن آلامى تزايلنى، يبدو أن الجرعة التى أعطانيها الطبيب قد أتت بنتيجة طيبة، ومع ذلك فالنهاية قريبة. . أليس كذلك؟».

فقالت زوجته المحطمة ذات الشعر الأبيض، وقد تعلقت بأهدابها الدموع :

- «كن مطمئناً فالطبيب يؤكد أن الأزمة فى طريقها إلى الزوال».

فقال فى ابتسامة ذات معنى :

- «أنتم تكذبون . . لا بأس، فالحياة نفسها أكذوبة كبرى . . آه . . أين الآمال الطويلة العريضة؟؟ لكأنى بها هى الأخرى تقف قبالتى الآن وعلى فمها ابتسامة مصطنعة ساخرة، وتزعم لى أنها فى طريقها إلى التحقق غداً . . أو بعد غد . . ».

فقاطعته الزوجة فى صوت مجروح خافت :

- «لا ترهق نفسك يا رضوان . . إن كثرة الكلام تتعبك . . ».

فصمت برهة ثم غمغم :

- «أين كمال؟ . . ».

- «ذهب إلى الجامعة . . ».

- «ومجدى . . حضرة الضابط؟؟».

-«لم يعد بعد، إنه مشترك فى الاستعراض الكبير . . ».

- «وإلهام؟؟».

- «ذهبت فى الصباح الباكر إلى بيت زوجها، لتبعث بأولادها إلى المدرسة . . ».

- «آه. . لا أحـد من أولادى هنا، كلهم فى غـمـرة الحـيـاة غارقون. . تمامًا مثلما كنت أفعل، شقاء وإرهاق وكـدح، ألهذا الحـد؟ ألا يسـتطيـعـون أن يجـتـمـعـوا حـول أبيـهـم فى لحظاته الأخيرة؟؟؟».

- «كـفى يا «رضـوان»، من أجل مـصلحـتك. . حـتـمًـا سيعودون. . ».

وتنهد «رضوان» وأخذت تمر بذهنه ذكريات بعيدة كثيرة، أنها فى غاية الجلاء والوضوح، لم تعد باهتة أو مشوشة رغم أنه يقاسى ما يقاسى من الآلام. ورغم أن الموت ينتصب فوق رأسه منتظراً اللحظة الحاسمة، اللحظة المكتوبة كى يطبق عينى «رضوان» إلى الأبد، ويطوى معه الذكريات والآلام والآمال.

وعاد «رضوان» إلى الوراء سنين طويلة. . شاب مغرم بالأدب والأدباء. . يقرض الشعر، ويدبج المقالات، ويقضى الساعات الطوال فى التحرير والقراءة والترجمة، ويحتل عموداً أو اثنين من إحدى الجرائد، وفى ذيل العمود يتألق اسمه. . ويكبر رضوان. . ويجتمع حوله الكثيرون من عشاق الأدب، أولئك الذين تكتظ قلوبهم بالآمال، وتحلم بالمجد والشهرة مثله تمامًا، منهم من هو صديق. . ومنهم من هو تلميذ مبتدئ فى مدرسة الفن والأدب. . يا له من عالم ساحر عجيب. . أحاديثهم عن تولستوى ودى بلزاك وأفلاطون والبارودى والأستاذ الإمام وزعماء التجديد، ودعاة القديم، ومعارك محتدمة

بغير رياح، وغبار يثور دون أن تراق نقطة دم، وأفكار تتصارع على الورق وفى المحافل وفي الرءوس فوران وثورات. . ويحس رضوان بزوره جافاً ويقول فى صوت واهن: «جرعة ماء. . ».

وتتسابق الأيدى لتحضر له ما يريد، إن اللهفة التى فى العيون، والإسراع فى تلبية ما يريده رضوان، والجو القاتم الكئيب، كلها تؤكد له أنه الرمق الأخير، فالإنسان الذى يعيش يجد شيئًا من الإهمال لأن الفرصة ممتدة، ولا داعى للعجلة والتوتر، أما الذى فى طريقه إلى الموت، فحرام أن تكون هناك لحظة واحدة من إهمال. . الإهمال جريمة وعار إذا تناول أولئك الذين يحتضرون. .

وعندما رنت كلمة الإهمال فى رأس «رضوان»، وتداولتها أفكاره، فاضت نفسه شجواً وحزنًا، أجل. . كان عالمًا كبيراً. . وكان ناقداً لامعًا، بل من ألمع نقاد عصره، وعلى رأس الرواد الذين وضعوا الأسس للبناء الكبير، للنهضة الفكرية. . وكان شاعراً ذا دوىّ وصيت. . وكان. . وكان. . لكنه مع ذلك. . عاش فقيراً كادحًا. . ليس له مورد رزق إلا وظيفة فى وزارة الأوقاف قبل أن يحال على المعاش، ومن هذه الجنيهات كان يصرف على الكتب. . والطعام. . وتعليم أبنائه، واستقبال أصدقائه وتلامذته من الأدباء والمتأدبين. . وفى الوقت نفسه كان ينفق منها على طبع كتبه ودواوينه.

وشرب «رضوان» جرعة الماء، وتكلم فجأة مع زوجته، مواصلاً ما انقطع من أفكاره وذكرياته، متناسيًا أن ذلك قد يبعث الدهشة أو الألم فى نفسها، لأنها لم تكن على علم بما يدور فى رأسه.

قال رضوان:

- «لم تكن للكتب سوقها الرائجة فى ذلك الزمان..».

- «أى زمان تقصد؟؟».

- «منذ ثلاثين أو أربعين سنة..».

ولم تفهم الزوجة ماذا يقصد زوجها على وجه التحديد، ومع ذلك فقد صمتت متوهمة أن ما نطق به رضوان مجرد هذيان، وليس على أنصاف الموتى من حرج، واستطرد الشيخ فى صوت متحشرج:

- كنت أطبع من ديوانى خمسمائة نسخة على نفقتى.. رقم مرتفع كما كانوا يقولون، وكنت أنا الموزع الوحيد.. الأصدقاء والأقارب يشترون أغلب النسخ ويعتبرون ذلك خدمة جليلة تقدم لى، ويدفعون لى الثمن وكأنهم يبذلون لى صدقة أو إحسانًا.. وكنت أمر بالباقى على بعض المكتبات.. فيردوننى أحيانًا، وأحيانًا أخرى يعيدون لى الكتب بعد شهرين أو ثلاثة معتذرين بأنهم لم يستطيعوا أن يوزعوا أكثر من نسخة أو اثنتين..

وفى هذه الساعات كانت الكآبة تخيم فوق صدرى، وتجعلنى أشعر بالمقت والكراهية للحياة، إذ ما قيمة الأفكار التى تدفن بين دفتى كتاب، وما جدوى العبقريات التى يذدريها الناس ولا يقرءون عنه شيئًا. . إنه شىء مؤلم يا عزيزتى أن أسهر الليالى الطوال، وأحلم بأشياء كثيرة، ثم لا أجد فى النهاية شيئًا. .» .

فترد الزوجة فى ضيق:

- «ما جدوى الكلام الآن يا رضوان؟؟ قلت لك أرح نفسك» .

- «أوه . . لقد عشت متعبًا لاهثًا حزينًا طول حياتى . . إنها ساعات قليلة يا زوجتى تلك التى بقيت لى فى الحياة، وأشعر أنى أريد أن أتكلم، ليس معى أحد من أبنائى أو أصدقائى كلهم جرفته الحياة أو طواه الموت . . وهأنذا وحيد . . فلابد أن أتكلم. إن لم تستمعى إلىَّ فسوف أحدث نفسى . .» .

وسادت فترة صمت . .

ثم عاد «رضوان» يتكلم من جديد . .

- «لم يقدر كفاءتى إلا عدد قليل من الناس، أقصد أولئك التلاميذ الناشئين أو بعض الأصدقاء الذين كانوا يتناولون كتبى بالنقد والتعليق . . أما الأعداء الحاسدون فقد كانوا كثيرين . . أليس من المحزن ألا يزورنى فى سنوات مرضى الخمس التى أصبت فيها بالشلل غير أهلى؟؟ أين جلاس المقاهى، ورفاق المنتديات، وعشاق الفكر . . منهم من جلس على القمة، وبقيت أنا فى

السفح. فى الحضيض. . ومنهم من أطعمته وسقيته وغذيته وملأت رأسه بالأفكار حتى أصيب بالتخمة ثم نسينى، إن المتخمين يا زوجتى قلما يفكرون فيمن يتضور جوعًا. . تلك سنة الحياة. . يا للسخرية. . حتى كمال ومجدى لم أرهما مرة واحدة يناقشوننى فى كتاب من كتبى، أو حتى يتصفحونه، كثيرًا ما أراهما يغرقان بين صفحات الكتب الكثيرة ذات الغلاف الجذاب، واللوحات الفنية التى يخطف تلوينها الأبصار. . أما أبوهما فشعره قديم. . كلاسيكى لا ينفع، وكتاباته النقدية لا تلائم روح العصر. . ؟

فاقتربت الزوجة منه، ووضعت يده بين كفيها. وقالت فى حنان:

- «رضوان».

- «نعم. . ».

- «أستحلفك بالله أن تهدأ. . ».

- «إنى فى غاية الهدوء يا عزيزتى، ألا تحبين أن تسمعى صوتى؟ أهو منفر للغاية؟؟ لست أهذى يا عزيزتى. أريد أن أقول أشياء كتمتها فى صدرى: طالما أخافتنى وأزعجتنى، شىء فظيع يا زوجتى ألا ينال الإنسان حقه فى الحياة. . أليس من السخرية أن أقرأ أن فلانًا يمثل مصر فى مؤتمر الأدباء، وآخر قد أصبح عضوًا بالمجتمع اللغوى، وتلميذًا قديمًا لى كان يقف خاشعًا مرتبكًا ببابى، قد تسلم رئاسة تحرير جريدة كبرى. ورابعًا يعتبرونه علمًا من أعلام الفكر

العربى، وخامسًا يعتبره شباب الجيل نصف إله؟؟؟ إنهم لم يبتكروا شيئًا. . لا جديد فيما يكتبون، إنهم عاشوا. . وما زالوا يعيشون على التقليد والسرقة أحيانًا. . لكنهم كبار الآن. .

فقالت الزوجة:

- «ثم ماذا يا عزيزى؟؟».

- «ثم. . يجب أن نستسلم لحكم الله. .».

- «صدقت، لكن صاحب الحق المهدور يشعر بمثل لهيب النار يشتعل فى قلبه، وحرام أن تضعى البذور ثم يأتى غيرك ليسرق الثمر. . إنهم يزعمون أن فلانًا أول من وضع أسس النقد العربى الحديث. . وفلانًا أول من ترجم روائع الأدب العالى. . والأديب الشاب «م» صاحب المدرسة الواقعية وزعيمها و. . و. . إلخ. . كلها أشياء صنعناها بأيدينا من قديم. . لكن ماذا نقول؟؟ إن الجالسين على القمة يصدرون الأحكام، ونحن على السفح لا نستطيع الصعود والشباب عيونهم تنظر إلى من فى القمة، ولا يتعطفون بنظرة على من تهاودوا عاجزين فى التراب.

- «يكفيك يا رضوان أنك أديت واجبك».

- «هذا لا يكفى يا عزيزتى. .».

- «ماذا كنت تريد إذن؟».

- «أستحلفك بالله يا عزيزتى أن تعطينى فنجانًا من القهوة . . » .

- «إن الطبيب حذرنى من ذلك . . » .

- «مـا دام الموت آتيًـا لا مـحـالة ، فـلا داعى لأن نضـيق على أنفسنا» .

- «لا يعلـم الغـيب إلا الله يا رضـوان . من يدرى؟ قـد يكتب الله لك الشفاء» .

فكرر التوسل قائلاً :

- «وحياة كمال ومجدى وإلهام» .

- «أنت كالطفل الكبير . . » .

- «هذه آخر مرة أشرب فيها القهوة» .

فتسللت دمعة من بين أهدابها ، وهمست بصوت مبحوح :

- «لا تقل ذلك» .

- «هذه هى الحقيقة وأنت تعرفينها . . » .

- «صمتًا . . سأحضر لك فنجان القهوة . . » .

وخرجت لتعد له القهوة ، بينما أخذ هو يفكر فى ذكرياته ، كانت حلوة ومرة ، ولكن مرارتها غلبت على حلاوتها ، وكانت طافحة بالآلام والآمال ، غير أن كثيرًا من آماله تبخرت تحت وهج الحقيقة والواقع ، فأخذ رضوان يغمغم بمقطوعة شعرية قالها ذات يوم :

«كنت أريد أن يقرأ لى الناس. ويفهمونى، ويضعونى فى مكانى».

- «يا لك من طامع!! ألم تكن موظفًا ميسور الحال».

- «كنت وما زلت يا حمقاء..».

- «سامحك الله يا رضوان.».

فاغتصب ابتسامة شاحبة، وغمغم:

- «حتى على أعتاب الموت تثيرين الشجار؟؟ أنسيت يوم كنت تأتين وتنتزعيننى من خلف المكتب انتزاعًا، وتبعثرين أوراقى فى ليالى السهر.. ليالى التأليف؟؟».

- «كنت موقنة أنك تسكب العرق، وتسود الصفحات لتضعها فى درج المكتب أو لتحمل منها مصدراً لثورتك وحنقك كما تفعل الآن».

- «ليتنى أطعتك يا شبيهة زوجة سقراط».

- «لم أكن عدوة للفكر والفن، ولكنى كنت أبحث عن جدوى ما تفعل».

- «فعلاً..».

***

وهدأ «رضوان» قليلاً، وبدا أن المسكن الذى أعطاه له الطبيب قد أتى بنتيجة طيبة، وأحس الشيخ بشىء من الراحة فقال لزوجته فى توسل:

إنى أســــائل نفــــسى هل بين مـهـدى ورمـسى

إلا ثـمـــــالة كـــــأس مـحـمـومـة بالأمـانى

أو قبضة من رماد

يا صـــاحــبى لا تسلنا عـن الفــــؤاد المعنى

فـــعـــيــشنا ليس يهنا ولا يطـيـب بـقـــــانا

إلا بطول السهاد

وعندما دخلت زوجته، كف عن الترنم بالشعر، وقال فى سخرية :

- «إنه شعر قديم يا عزيزتى. . شعر صوفى. . وهو لا يروق لشباب اليوم، إنهم مغرمون بالشعر الحديث حيث لا قافية. . لا شىء على الإطلاق. . ».

- «خذ القهوة يا «رضوان» واصمت».

- «ما زلت ماكرة رغم بياض شعرك، أتعتبرين القهوة ثمنًا لسكوتى؟».

- «صحتك عندى أهم شىء؟».

- «سلمت أيتها الزوجة الطيبة».

وشرب رضوان القهوة، ثم طلب من زوجته أن تحضر له مسودات الكتب الموضوعة فى أدراج المكتب، وحاولت أن تستفسر منه عن السبب الذى يدعوه إلى ذلك لكنه أصر على إحضارها، إنه

لا يستطيع القراءة ولا الكتابة. فما السرفى إحضارها الآن؟؟ ولم تجد الزوجة مناصًا من أن تحضر له ما يريد.

وحينما وضعت كومة الأوراق بجواره، نظر إليها والغبار يتصاعد منها، والقدم يعلوها. ثم تحسسها بيده، وأخذ يتناولها كتابًا كتابًا.. هذا هو الجزء الخامس من ديوانه، وهذا هو بحث أدبى عن مذاهب النقد العربى، أما ثالثهم فكتاب عن أبى العلاء المعرى، وعندما وصل إلى أبى العلاء قال لزوجته:

- «هذه المخطوطات يا عزيزتى كنت أعتبرها وسيلة الخلود».

- «كل شىء فى الدنيا فان يا رضوان..».

- «لكن البشر لا يريدون الاعتراف بذلك إنهم عجزوا عن الإفلات من الموت. ففكروا فى أشياء أخرى يذكرهم بها الناس بعد الممات.. وها أنت ترين أن وسيلتى للخلود -أى كتبى- لم يرَ أغلبها النور.. وبقيت هكذا للتراب والصدأ والنسيان، وسيأتى يوم تمتد إليها أيدى الأطفال الصغار، أعنى أولاد مجدى وكمال، وسيصنعون منها سفنًا بدائية، ويدعونها لتعوم فى أطباق الماء، شىء مضحك، ولهذا السبب سوف أحرقها الآن».

- «تحرقها...».

- «أجل سأحرقها».

- «ماذا دهاك؟».

- «لا شيء . . الجو بارد، وأريد أن أستدفئ بها، ثم لا تنسى برد الشيخوخة اليائسة . . . إنه فظيع . . »

- «إنك تتعمد إغاظتي اليوم، وتنوى أن تلحق الضرر بنفسك، فقال في إصرار عنيد:

- «أحضرى الموقد . . سوف نحرقها معًا، سأنتقم لغرورى وآمالى الكاذبة. وفى الوقت نفسه سوف تنتقمين أنت الأخرى لتلك الليالى الطويلة التى كنت أتركك فيها وحيدة، وأبقى فى صحبة الأوراق . . قومى يا امرأة . . يجب أن تسرعى . . إن الموت لا ينتظر . . ».

وفى هذه اللحظة دخل الحجرة كمال ومجدى وإلهام، كانت عيونهم محتقنة من كثرة البكاء، وكانت وجوههم شاحبة إشفاقًا وحزنًا على الأب المريض، وحينما رآهم رضوان نسى آلامه ونسى الأوراق المتكومة بجواره، وأشرق وجهه بالسعادة والرضا، وامحت عن ملامحه تقلصات الحسرة واليأس، وقال:

- «مرحى . . مرحى . . إنهم يبكون من أجلى، حسبتهم نسونى، كنت ظالمًا إن دموع الأبناء يا زوجتى العزيزة أروع الزاد وأغناه فى رحلة الموت الشاحبة . . دموعكم غالية يا أبنائى . . ».

ثم صمت لحظة وبعدها بدا وكأنه قد تذكر شيئًا مهمًا فقال:

- ليس الخلود فى هذه الأوراق التى أهملها الزمان، وإنما فى هذه النماذج الحية . . فى مجدى وكمال وإلهام هم الوسيلة المثلى

إلى خلودى . . حينما أراهم تفيض بى السعادة وأنسى آلامى المعربدة سبحانك يا رب . . أسرعى يا امرأة واحرقى هذه الأوراق . . » .

وأمام توسلات أبنائه ودموعهم . . وافق «رضوان» على ألا يحرق أوراقه ، وأن يسكن فى سريره ويكف عن الكلام حتى لا يزداد ألمه ، وتستبد به المتاعب . .

وبعد ساعة أسلم الروح وحوله أبناؤه وزوجته . .

وفى اليوم التالى ظهر نعى مقتضب فى الصفحة ما قبل الأخيرة لإحدى الصحف .

***

وقبل أن يمر أسبوع واحد ، كانت الصحف جميعها تتكلم عن فقيد الأدب والفكر «رضوان» ، وقررت الهيئات الأدبية إقامة حفل تأبين له ، وإصدار طبعات جديدة أنيقة لكتبه المطبوعة من زمن بعيد ، والعمل على نشر ما لم ينشر منها ، وتعليم أبنائه فى الجامعة بالمجان ، واعتباره أحد أعلام الفكر والأدب فى النهضة الحديثة .

●●●

«.. ما أجمل أن يشعر الإنسان بأهميته وينظر فيرى أن له دوراً يتوقف عليه مصير الناس ويحدد بسببه المستقبل..».

موعدنا غداً

مدت «لمياء» يدها فى هدوء، وتناولت الحقيبة الصغيرة من «عبد القادر»، ثم أطرقت برأسها فى حياء؛ بينما همس عبد القادر قائلاً:

- «كونى حذرة. وما عليك إلا أن تعطى هذه الحقيبة فى الصباح لصاحب البدلة الرمادية، الذى سيكون واقفًا أمام مبنى كلية الطب بجامعة بغداد، ولا تنسى باقى الإشارات المتفق عليها.. مفهوم؟؟

فغمغمت لمياء:

- «أجل.. لكن كيف أتصرف إذا لم أجده هناك؟؟».

- «ليست هناك احتمالات أخرى.. حتمًا ستجدينه.».

وانطلقت «لمياء» عبر الظلام كالطيف، كانت تفكر منذ ساعات فى موعد الزفاف الذى اقترب ورقص قلبها من فرط السعادة، حينما بعث «عبد القادر» يطلب مقابلتها على عجل، إذ إنها لم تكن تشك لحظة فى أن هذه المقابلة ليست إلا للتفاهم على الخطوط العريضة لحفل الزفاف، إنها تحب «عبد القادر» من أعماق فؤادها: تحب فيه رجولته التى لا تعرف الخضوع، وتحب فيه شبابه المغامر الذى لا يعبأ بشىء،

رغم أنها تشفق عليه من تلك المغامرات التى قد توردە موارد الخطر . . وتحب فيه بساطته وصراحته وإخلاصه ، ثم إن مركزه الاجتماعى ، والعمل المنوط به ليبعثان فى نفسها الفخر والاعتزاز بحبها له . . » .

وتمتمت وهى تنحرف إلى الزقاق المؤدى إلى بيتها قائلة :

- «شىء خطير فعلاً . . إننا نلعب بالنار» .

غير أنها ابتسمت ابتسامة عريضة وهى تستطرد قائلة :

- ومع ذلك . فأنا أحس بلذة عميقة ، أحس أنى أصبحت ذات كيان حقيقى . ووجود فعلى ، ولِمَ لا ؟؟ إن «عبد القادر» يحتاج إلىّ ويوكل إلىّ بعض المهام ، ما أجمل أن يشعر الإنسان بأهميته ، وينظر فيرى أن له دوراً يتوقف عليه مصير الناس ، ويتحدد بسببه المستقبل . الحياة بلا حركة أو هدف شىء سقيم ممل ، أليس كذلك؟؟» .

وقبل أن تجيب على نفسها ، كانت يدها تقرع باب البيت قرعات خفيفة ، وسرعان ما انفتح لها ، فتوارت داخلة فى هدوء مألوف ، ثم ألقت التحية على أسرتها ، وقصدت على التو الصندوق الذى تضع فيه ملابسها فدست بهما الحقيبة الصغيرة التى تسلمتها من «عبد القادر» .

***

أما «عبد القادر» فقد تناسى موضوع الزفاف كلية ، وتناسى بطاقات الدعوة التى كان قد بعث بها إلى أصدقائه ومعارفه ، كان

في رأسه دوامة عاصفة من التفكير الذى لا يكف عن الاسترسال، وحاول جاهداً أن يستريح ولو قليلاً من هذا الإجهاد الذهنى المتصل، لكن دون جدوى، إن خطورة ما يفكر فيه قد صرفه عن طعامه وشرابه، حتى موعد زفافه، لم يعد يخطر له على بال، فهو من الصنف الذى يغرق بكل حواسه ومشاعره فى التفكير إذ ما دهمه أمر ذو بال..

وقصد «عبد القادر» نادى ضباط الجيش فى بداية الأمر، وانتحى جانبًا هناك، ووضع أمامه المشروب المثلج، ثم ارتكز رأسه فوق قبضته اليمنى المثبتة فوق المنضدة، وظل هكذا غارقًا فى تفكير..

وكانت مجموعات الضباط تنتشر هنا وهناك، تحتدم بينهم المناقشات المختلفة، فترتفع أصواتها حينًا ثم تنخفض. ولم تكد تمر فترة وجيزة، حتى وفد على «عبد القادر» بعض أصدقائه، وتحلقوا معه حول المنضدة، كانوا يتكلمون فى تحفظ وحذر، وكانت أحاديثهم تدور فيما يشبه الهمس، وأما عيونهم فقد كانت تبرق بريقًا يمتزج إليه الإصرار العنيد بالإشفاق والرهبة، إنهم مؤمنون بما يفعلون، لكنهم بشر، فلا عجب إذا راودهم الخوف، واستبدت بهم الحيرة، فهم مقدمون على شيء كبير، وقد يكلفهم حياتهم، أو على الأقل قد يفقدهم مستقبلهم، ثم إنهم مشفقون من النتيجة التى تنتظرهم فقد لا تهمهم حياتهم أو مستقبلهم، لكن الشيء الذى يزعجهم ويبعث فى قلوبهم الوجل والرهبة هو مدى نجاح مسعاهم.

وقبل أن يغادر «عبد القادر» النادى، همس أحد أصدقائه الضباط فى أذنه قائلاً:

- «شىء رائع أن تفعل جامعة بغداد ذلك فى نفس الوقت الذى نقوم فيه نحن الضباط بدورنا..».

وعلق آخر قائلاً:

- «إن ذلك سوف يثير ثائرة الإنجليز..».

فأردف عبدالقادر:

- «تعنى أنه سوف يحنق نورى السعيد؟؟».

- «فعلاً، إن الصفعة التى تتعرض إنجلترا يعتبرها نورى نازلة على وجهه هو..».

- «ذلك دستور العبيد وفلسفتهم..».

قالها «عبد القادر» مغتاظًا، ثم استطرد.

- «إن موقف حكوماتنا من مصر مخجل حقاً، ولو اتسع الوقت أمامنا لفعلنا أكثر من ذلك، إن ما نقصده فى هذا الوقت بالذات هو أن نعلن كلمة شعب العراق، وأن نعبر عن رأيه بصراحة وجلاء إزاء ما يحدث الآن فى مصر.. إنى أعترف معكم أيها الأصدقاء أن هذا ليس كبير الجدوى، غير أنه مما لا شك فيه سوف يكون ذا دلالة عميقة، ولو كنت واثقًا أن هذه الساعات كافية لأن تحرك الجيش

كله، وتزحف تجاه حدود مصر لما ترددت لحظة فى خوض أخطر المغامرات . . ».

***

حينما عاد عبد القادر إلى منزله فى هذه الليلة، قصد من فوره إلى حجرة أبيه المشلول، ثم انحنى على سرير الوالد المريض، وقبّل ظاهر يده فى حنو وإخلاص ففتح الأب عينيه فى تثاقل، وهو يقول فى صوت خفيض:

- «عبد القادر؟؟».

- «نعم يا أبى . . كيف حالك الليلة؟؟».

فأجاب الرجل فى نبرات مرتعشة:

- «الحال يعلمها الله . . فيم تأخرك حتى هذه الساعة من الليل؟؟».

وقبل أن يجيب «عبد القادر» تسللت يده إلى المذياع المجاور كى يسكته، فسارع أبوه قائلاً:

- «دعه يا عبد القادر . . إنى متلهف لأن أسمع أخبار القاهرة . . ألست معى فى أن ما حدث نذالة وحطة؟؟ والأبشع من ذلك موقف حكومتنا المذرى؟؟ إن الإنجليز هكذا لا عهد لهم ولا ميثاق . . ».

فتغير وجه «عبد القادر»، واحتقنت فيه الدماء وغمغم فى حنق:

- «لقد بلغت المأساة أوجها . . أتتصور يا أبى أن طائرات الإنجليز قد هبطت فى مطارات العراق، وتزودت بالوقود والذخيرة، ثم انطلقت لتمطر مصر بوابل من نيرانها؟».

فقال الأب فى دهشة:

- «أحق ما تقول؟».

- «هذا ما حدث فعلاً، وقد علمه كل ضباط الجيش، والأدهش من ذلك أن دولاً ثلاثًا قد اشتركت فى العدوان».

- «يا للعار!!! أما كان يكفى أن نبوء بالخزى لعدم مد يد المعونة لمصر؟؟ أيزيد نور السعيد الطين بلة، ويسمح لطائرات العدو بالتزود فى أراضينا؟».

وصمت «عبد القادر». .

لم يستطع أن يتكلم.

كان فى داخله ثورة تحتدم، وفى قلبه مرجل يغلى. .

أما الوالد المريض فقد أخذ يتحدث عن الإنجليز وماضيهم المذرى بعد أن وطأت أقدامهم أرض العرب، ثم استطرد فى الحديث عن ثورة ١٩٤١ وما حدث فيها من خيانات ومهازل، وعن الشهداء الذين ظلوا فى الميادين العامة، وتداولتهم أعواد المشانق، وعن السجون التى غصت -ومازالت- بالأحرار، وأخيراً قال:

- «إن الحكام المنحرفين يستغلون إمكانياتهم وأذنابهم فى إخماد ثورة الشعب وتحطيم معنوياته ومثله . . ».

- «إنها لخيانة كبرى أن يترك الأخ أخاه تنهشه الذئاب دون أن يحرك ساكنًا . . ».

فقال الأب وقد تبللت عيناه بالدموع :

- «الأيام دول يا عبد القادر . . ».

- «ويوم الثأر قريب . . ».

ثم تمتم الأب وعيناه إلى السماء :

- «اللهم لا أحقاد ولا تشفٍّ ، لكنه إحقاق للحق ، وإزهاق للباطل . . ».

وسار «عبد القادر» إلى حجرة نومه ، تاركًا المذياع يهدر بجوار أبيه ، ويرسل صيحات القاهرة المدوية التى لا تخاف الموت . . ولا ترهب النار ، وأوشكت دموعه أن تنهمر ، وهو يستمع إلى صوت النشيد :

نحن شعب عربى واحد ضمه فى حومة البعث طريق

فغمغم وهو يصر على أسنانه ، ويخلع سترته : أجل شعب واحد .

وحينما استلقى على سريره لم يستطع أن يغفو ولو دقائق ، وكانت عيناه مشدودتين إلى سقف الحجرة ، وقبضتاه متصلبتين فى عصبية ، والعرق يتقاطر على جبينه فى غزارة ، وصوت النشيد الوطنى يطن فى

أذنيه، ويهز كيانه هزاً عنيفًا، وصورة النار التى يقذف بها العدو على الآمنين من سكان مصر. . والدم والموت والوحشية والخيانة. كل ذلك يلح على ذهنه ويمنعه أن يستسلم لسلطان الكرى، وكيف ينام من تتقد فى قلبه جمرات من الحنق والأسى؟؟».

***

وفى صباح اليوم التالى دقت الساعة التاسعة، وتلفتت «مياء» ذات اليمين وذات الشمال، باحثة عن صاحب البدلة الرمادية الواقف أمام كلية الطب، لكنها لم تجد أحداً.

إن الشرطة منبثة فى كل مكان، والجو يظهر وكأنه مشحون بتيار خفى لا يبدو للعيان، والتوجس والخوف يبسطان رواقهما هنا وهناك، هذا ما تدركه «مياء»، فهل هى حقيقة أم مجرد الوهم الذى يعكس ما يعتمل فى صدرها من إشهاق وتوجس؟؟

وتنبهت «مياء» إلى نفسها مرة أخرى، وأعادت البحث والتنقيب، لكن بلا فائدة.

لقد مر نصف ساعة. . وها هو لم يعد.

وتذكرت «مياء» أنها سألت «عبد القادر» عما تفعله إذا لم يأت صاحب البدلة الرمادية، لكنه قطع تساؤلها آنذاك وأفهمها أنه لاَ مجال للاحتمالات، لأن الأمور تسير سيراً دقيقًا ومنظمًا. . والآن ماذا تفعل «مياء»؟؟

ليس فى الإمكان الاتصال بعبد القادر وهو فى مقر عمله

بالجيش، ثم إن الاتصال بضابط فى هذا اليوم بالذات قد يكون سيئ الأثر فيما بعد.

هل تعود من حيث جاءت والحقيبة فى يدها؟

إن ذلك معناه هدم كل ما بناه «عبد القادر» وأصحابه . .

واستولى عليها القلق والحيرة. وشعرت بعجزها وضعفها، فلم تتمالك نفسها وبكت . . إنها تحب «عبد القادر» وتريد أن تفعل ما يريد وهى فى الوقت نفسه تحس أنها مقدمة على عمل رائع، وقد ملأها هذا ثقة بنفسها، واعتزازاً بدورها، فهل ينهار كل ذلك دفعة واحدة؟؟

لن يحدث ذلك . .

واندفعت «لمياء» إلى ساحة الجامعة فى خطوات عجلى مرتبكة، إن جو الجامعة ليس غريباً عليها، فقد تخرجت فيها منذ عام واحد، وفى الوقت نفسه تعرف ما بداخل الحقيبة . . إنها تحتوى على منشورات وتعليمات للطلبة، ودعوة قوية إلى الحكومة، مطالبة بالتدخل فوراً، دفاعاً عن مصر قلب الأمة العربية . .

وازداد شحوب وجه «لمياء» وارتعشت يدها وهى تعالج الحقيبة لتفتحها، ثم أمسكت بربطة الأوراق الموجودة فيها. وفى عصبية ظاهرة أخذت تبعثر الأوراق فى كل مكان، وتهيب بالطلبة أن يحتشدوا حولها.

«أرواحنا فداء لك يا مصر . .».

«شعب عربي واحد. .».

«الموت للمعتدين».

انطلقت هذه الصيحات من فم لمياء متلاحقة صاخبة دون وعى أو إرادة، كانت هناك قوة عجيبة تدفعها وتوجهها، وفى دقائق كانت الجامعة شعلة من الثورة العارمة. .

***

وأحست «لمياء»، عند عودتها فى المساء بيد غليظة جافية تقبض على معصمها. وتجرها من ظلام الزقاق بلا شفقة أو رحمة إلى ظلام السجن الرهيب ولكنها لم تكن وحدها، فقد طفحت سجون بغداد وغيرها فى هذا اليوم بكثير من النزلاء.

وسمعت لمياء بعد ذلك أن هناك حركة مشابهة، قد قامت فى الجيش العراقى تدعو إلى تأييد مصر ومعاونتها ضد العدوان وعلى رأس الحركة زوجها «عبد القادر»، غير أنه استطاع أن يفلت، واختفى فى مكان سرى بعيد عن أعين الشرطة ورجال نورى، لكنها لم تكن تعلم أن صاحب البدلة الرمادية كان ممن تحفظت عليهم الشرطة فى الليلة السابقة، وأودعتهم السجن خوفًا من نشاطهم المتوقع.

***

أما الأب الأشل، فقد كان يتململ فى قلق وأسى ويقول:

– «مسكين عبد القادر إنهم يبحثون عنه فى كل مكان».

وفى الوقت نفسه سمع ضجة خارج حجرته، فالتفت إلى زوجته قائلاً:

- «لقد عادوا مرة ثانية للبحث عنه».

دخل أحدهم وقال فى لهجة صارمة:

- «أما زلت مصراً على أنك لا تعرف مكانه؟؟».

- «طبعًا لا أعرف..».

فقال الرجل فى حدة:

- «إنك شيخ لئيم.. وماضيك أسود، مثل وجهك تمامًا. وإن لم يعد «عبد القادر» فى خلال يومين، فسوف ننتزعك من هنا بدلاً منه، ولن يغفر لك شللك.. أعتقد أن كلامى واضح..».

ولم يجب الشيخ المريض بكلمة..

لكنه لم ينم فى هذه الليلة إلا بعد أن أرسل إلى «عبد القادر» فى مخبئه رسالة، هذا نصها:

«ولدى عبد القادر»..

لن يتركوك.. فلتهاجر إلى سوريا.. ثم إلى مصر.. غداً موعدنا، لا تكن عنيداً، وتصر على البقاء.. إن هجرتك أجدى عليك وعلى مبادئك ألف مرة من القذف بك فى السجن.. أما أنا فلا تقلق علىّ.. فأنا.. وأنت.. وكلنا.. وديعة عند الله..».

أبوك

«هناك كثير من الحقائق التى نحاول أن نتجاهلها ونهرب منها لكنها تتصدى لنا، وتنتصب أمامنا فى تحدٍّ، وترغمنا على الاعتراف بها..».

بحر الحقيقة

كان «زكى العرباوى» يجلس أمام مقام سيدى «العراقى»، تتدلى من عنقه مسبحة طويلة، وتكتنف وجهه النحاسى لحية كثة مهملة، ويضع على رأسه طرطوراً متسخاً يتصل خلف العنق بثوبه المرقع ذى الألوان العديدة. ورغم دمامة وجه «زكى العرباوى»، وسحنته الكالحة، وعينه التالفة. فقد كان يستمتع بقوة خارقة، وعضلات مفتولة، وبالإضافة إلى ذلك تلك البلاهة، أو ذلك العته الذى تتسم به تصرفاته.

ومست نسائم العصارى وجه «زكى»، ونفذت إلى خياشيمه رائحة سحرية عجيبة قد تعودها، فانتشى بها فؤاده، وسكرت بها نفسه، فغمغم بكلمات غير مفهومة، وطفر الزبد من فمه، ثم اتجه ببصره صوب القرية. فوجد سرب الحسان الفلاحات حاملات الجرار، وهن يقتربن منه، متجهات إلى النهر، كما يحدث دائماً فى هذا الميعاد من كل يوم، وكانت بينهن «ريحانة» الجميلة، تتمخطر فى مشيتها المتسقة، ووسامتها الفاتنة، وثوبها الزاهى المتألق.

كان مقدم «ريحانة» هو السبب المباشر فى النشوة التى غمرت

«زكى» وهزت أعطافه، لقد كان ينتظر وقت الأصيل كل يوم بقلب خافق مرتعش النبضات؛ لأن هذه اللحظات بنسائمها وذكرياتها هى الزاد الروحى الدسم، الذى يعيش عليه طول يومه، وهو فى حراسة شيخه الجليل «العراقى» صاحب القبه البيضاء، وصاحب الكرامات التى يتناقلها الفلاحون.

وحينما اقترب سرب الحسان من المكان الذى يجلس فيه زكى العرباوى، ارتسمت على ثغورهن الجميلة ابتسامة ذات معنى، ورمين «ريحانة» بنظرات مداعبة خبيثة، وهتفت إحداهن فى مكر:

- «تأملى يا ريحانة. إنه ينظر إليك بشراهة، ويكاد يلتهمك بعينه اليتيمة».

فهمست «ريحانة» دون اكتراث:

- «فليحملق من اليوم إلى الغد حتى تقتلع عينه الباقية».

ولما حاذت الفتيات مقام ولى الله حيث يجلس زكى، انطلق صوته الأجش، مترنمًا بأناشيده- أو خمرياته- كما يسمونها، فتلكأن فى مشيتهن ليسمعنه وهو يقول:

على شط بحر الحقيقة ناس صيادين

متعممين بالشبك. فى الأصل صيادين

فعلقت إحداهن ضاحكة:

- «يبدو أنه غارق حتى أذنيه: لقد صادته شباكك يا ريحانة».

فأجابت ريحانة:

- «حتى هذا يعرف الحب؟؟ فليبحث له عن لقمة يأكلها. لعنة الله عليه. فقطع عليهن الحديث صوت «زكى» وهو يكمل أغنية:

يا مـــدعى الـكبـــر هـو الكبـــر عـــلاّ مين

الكبر ياما خفض ناس كانوا عُلما وعلاّمين

فعادت إحداهن إلى التعليق قائلة:

- «مسكين يا زكى. . بنت الرافضى تسوق عليك الدلال: لا عليك، ناس تاكل البلح، وناس تنضرب بالناق».

فضحكن. ثم انطلقن صوب النهر كالغزلان المرحة الخفيفة، وزكى يشيعهن بنظراته الكسيرة، وقلبه الواجف، وآهاته الحرى التى يصعدها فى حسرة وألم.

وفجأة ظهر من خلف الضريح «المحمدى الجحش» قابضًا بيده على فأسه فى تحدٍّ وغيظ، وعيناه تقدحان بالشر، واقترب من زكى ثم وقف أمامه لحظة، كان يرميه خلالها بنظرات نارية حانقة، وقال:

- «ألا تكف عن هذا الكلام الفارغ الذى توجع رأسنا به؟»

فأطرق «زكى» مركزاً بصره على الأرض، ثم أخذ يهز نصفه الأعلى بطريقة تشبه حركات أولئك الذين يرتلون القرآن فى القرية أمام المقابر ثم رفع رأسه وهو يزعق:

- «حى . . حى . . مدد يا عراقى . مدد يا حامى الديار . . مدد يا ندهة المنضام . يا قطب الرجال . » .

وكان الزبد يتساقط من فيه ويتعلق بشعر لحيته ، ثم يتناثر على صدره المرقع الملون ، كل ذلك و «المحمدى الجحش» يزداد غيظاً على غيظه ، ويده تزداد تشبثًا واستمساكًا بالفأس ، ثم أخذ يصر على أسنانه فى حقد مكبوت بدا واضحًا فى أوداجه المنتفخة ، ووجهه المحتقن وجسده المتوتر المرتعد ، حتى إنه خطا خطوة أخيرة نحو زكى ، وقبض بيده الأخرى على كتفه ، وأخذ يهزه فى عنف ويقول :

- «لن تنطلى حيلك علىّ . . إذا لم تكف عن هذا التبالة فسأعرف كيف أربيك يا ابن الـ . . . » .

فلم يجب «زكى» عليه بكلمة واحدة ، بل اندفع ناحية الضريح ، وأخذ يتمسح بأستاره ، ويقبل أركانه ، ويلف حوله فى ابتهال وضراعة وهو يستغيث ، وتصدر عنه شهقات والهة عميقة ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، بينما وقف «المحمدى الجحش» فى حيرة من أمره ناظراً إلى «زكى» الذى يقبل أعتاب مولاه ، ويسكب العبرات .

وحدثته نفسه أن يهوى بفأسه على رأس «زكى العرباوى» ، حتى يريح نفسه منه ومن مشاغباته ، إنها خطوة تبدو فى نظر «المحمدى» سهلة ميسورة ، لأن «زكى العرباوى» كما يقولون

«مقطوع من شجرة»، لا أهل له ولا أرض، جاء إلى القرية شريداً طريداً، ولم ينعم بالاستقرار إلا بعد أن أقاموه حارساً لضريح الشيخ العراقي كي يصيب شيئًا من النذور والصدقات.

إن قتله إذن أمر هين، فضلاً عن أنه سوف يضع حداً لمشاغباته وتصديه لريحانة في الذهاب والإياب، وملاحقته لها بترانيمه الصوفية التي تحمل في طياتها أكثر من معنى، والتي أخذ يتندر بها فلاحو القرية ونساؤها، فيوقع ذلك المحمدي في غير قليل من الإحراج.. بل العار. ولم لا؟؟ أليست «ريحانة» خطيبته؟ أليس هو الآخر فلاحًا ذا نخوة وحمية، يغار على عرضه، ويخشى على سمعته؟ صحيح أن ريحانة بائعة فجل وجزر وطماطم وفواكه، لكن جمالها يغتفر لها هذه المهنة الحقيرة في القرية، ولقد أصبحت بعد أن خطبها المحمدي، مرتبطة به أقوى ارتباط وأوثقه، وكل ما يمسها، حتى ولو كان بريئًا عابراً فسوف يجلب له التنغيص والشقاء، فيجب عليه إذن أن يضع حداً لعبث زكي وتبالهه، ولن يقتنع المحمدي أبدًا بسذاجة زكي وبلاهته لأنه يشك في ذلك شكاً كبيراً، فالجميع هنا يفهمون ما يعنيه بخمرياته التي يغنيها. هل المقصود بها «ريحانة» بالذات أم معشوقات أخر في عالم الغيب يهفو لها العاشقون من المتصوفين؟ إنه أمر يدعو إلى التساؤل.

دارت هذه الخواطر برأس «المحمدي» وهو واقف أمام الضريح يرمق زكي بنظرات زائغة، بينما ذلك المعتوه يلف ويدور حول الضريح ويتمسح بأستاره، ويتوسل بولي الله حامي الذمار،

وحارس بحر الحقيقة وسيد الصيادين أصحاب الطريق . . والأسرار والكرامات الكثيرة ، وقبل أن يغادر «المحمدى» مكانه ، ويتجه صوب القرية ، قال فى انفعال :

- «لو فعلتها مرة ثانية فسوف أشرب من دمك ، وأرمى لحمك للكلاب . . سامع ؟» .

ومشى المحمدى بعوده القصير القمىء ، وبطنه المنتفخ ، ووجهه المكفهر فى طريقه إلى القرية ، دون أن ينتظر من «زكى» جوابًا ، وما زالت فى رأسه وقدة من الأفكار الملتهبة المقلقة . . إن زكى تافه . . أبله معتوه ، لكنه إنسان يحس ويتألم ، ويرضى ويسخط ، و . . ويحب ويكره ، هذه حقيقة لا يستطيع المحمدى أن ينكرها ، هناك كثير من الحقائق التى نحاول أن نتجاهلها ونهرب منها ، لكنها تتصدى لنا ، وتنتصب أمامنا فى تحدٍّ ، وترغمنا على الاعتراف بها . . لكن كيف يتأتى لهذا المسخ المشوه أن يفكر فى الحب . . وفى حب «ريحانة» بالذات وهى خطيبته ، أيحتمى فى بلاهته وفى الضريح الذى يلازمه ليفعل ما يشاء ؟؟ إن ريحانة للمحمدى . . له وحده ، ويجب ألا يفكر فيها أحد سواه ، إنه يريد أن يحجر على الأفكار ، ويتجسس على العواطف والأحاسيس ، هذا ما يريده المحمدى ، لكنه أمر بعيد المنال والتحقيق ، ومن هنا ينبت الشقاء والألم والتملق . فتتحول حياته إلى جحيم لا يطاق ، وتصبح أغانى «زكى» وكأنها أشواك تنغز فى قلبه . أو أسواط تنهب جسده ، وتصبح تعليقات الناس الساخرة وكأنها السم الزعاف الذى يتجرعه رغم أنفه .

ويفيق «المحمدى» مرة ثانية من هواجسه، وقد تناهى إلى سمعه صوت «زكى العرباوى» من جديد:

إمبارح العصر جانى الحب فى قلبى

خايف أقول آه من اللى قاعدين جنبى

ويلتفت المحمدى إلى الخلف ناحية الضريح، فيجد «زكى» يتطوح من بعيد يمنة ويسرة، وسرب الحسان حاملات الجرار يمر من أمامه فى خفة ومرح. وفى الطليعة «ريحانة»، وقد علا وجهها ووجوههن إشراقة نابضة بالدلال، مفعمة بالحيوية، فيضغط «المحمدى» على أسنانه ويغمغم مغتاظاً:

- «آه يا بن الـ . . سأعرف كيف أنتقم منك».

ثم يسرع «المحمدى» فى خطوه قبل أن يدركه موكب الفتيات فيلمحن على وجهه ما يعتمل فى قلبه من غيره وحنق واضطراب، ويهمهم فى صوت خفيض:

- «يقولون إن زكى العرباوى هو الآخر ولى من أولياء الله الصالحين، ومن أهل الخطوة. . والمصيبة أن له كرامات، ولو فهموا الحقيقة لتبينوا أنه شيطان مريد، ولا يستحق إلا الشنق والحرق. . جميل جداً. . ولى من أولياء الله الصالحين. . غداً أظهر لهم حقيقة هذه الولاية. . على شط بحر الحقيقة ناس صيادين. . ما أروع ذلك ملعون أبوك وأبو الصيادين. . ».

لكن ماذا كان موقف «ريحانة» إزاء هذا كله؟؟

لقد كانت تظهر أمام رفيقاتها الاحتقار وعدم الاكتراث لنظرات زكى الذليلة، وأغانيه الضارعة التى تحمل أكثر من معنى، غير أنها كانت تشعر بمزيد من الفخر والاعتداد بنفسها شأن الفتاة الجميلة كلما أطرى جمالها معجب، أو تمسح بها محب ولهان، حتى لو كان زكى، لهذا كانت تعتصم بالدلال والكبرياء، كلما هتف «زكى» بأغنيته عن الصيادين، لأنها كانت موقنة أن بحر الحقيقة الذى يتحدث عنه. ما هو إلا رمز لبحر شبين الذى تملأ منه جرتها، وأن أولئك «المعممين بالشبك» ليسوا من أهل الطريق الإلهى، بل هى وزميلاتها، وكانت موقنة أيضاً أن منكود الحظ «زكى» العبيط قد وقع فى شباك غرامها.

ولو كانت «ريحانة» غير راضية عن تصرفات «زكى» وسلوكه نحوها لما ترددت لحظة فى الابتعاد عن مكانه، ولاتخذت طريقاً غير الطريق الذى يمر أمام الضريح، أو ربما بصقت فى وجهه، وقذفته بالطوب والأحجار، كلما تصدى لها أو وقف فى طريقها، فما أسهل ذلك بالنسبة لها، لكنها- كما أسلفنا- لم تشأ أن تحرم نفسها من تلك المتعة.. متعتها عندما يريق زكى عند موطئ قدميها أغانى عشقه، ودموع هواه المبرح..

أما «زكى» فقد كان حقيقة على جانب من السذاجة والعبط البسيطين فلم يكن تالف العقل تماماً كما يعتقد الكثيرون. بل كان

فى استطاعته أن يزن الأمور، ويحسن التصرف فى أغلب الأحيان على الرغم من الزبد الذى يطفر من فيه ورغم لحيته المشوشة، ونظراته المتبالهة، وندرة كلامه، وميله للعزلة والاعتكاف، وما كان عليه سوى أن يجلس أمام الضريح فى شبه غيبوبة صوفية، فتنهال عليه الإحسانات. ويمتلئ حجره بالكعك والفطير والقروش وغيرها. .

وكثيراً ما كان يتردد «زكى» على «ريحانة» فى الماضى، كان يقصدها لدى الناصية التى تبيع عندها البلح وغيره. وكان يقف أمامها كالمنتشى بجمالها، مستمعًا إلى صوتها الريان الدافئ وهى تغنى للبلح. بينما ترفع يدها بالميزان وتبيع لأحد الزبائن رطلاً أو رطلين، وقد يقترب منها ويشترى هو الآخر رغم أنه لم يكن فى حاجة لأن يشترى، لأن حجره كان عامرًا دائمًا بكل شىء.

ولما هجرت «ريحانة» التجارة بعد خطبتها للمحمدى، قنع «زكى» بموقفه السلبى هناك أمام ضريح الشيخ، وكلما مرت به أطلق خلفها صوته الأجش، مترنمًا بمقطوعة «على شط بحر الحقيقة ناس صيادين» وقد كانت نظراته ترق، وملامحه الجامدة ترتخى وتشرق فى تلك الأوقات التى يراها فيها، وقد يبرح به الشوق والجوى، فتنسكب دموعه، ثم لا يجد وسيلة يدارى بها انفعاله سوى أن يتطوح يمينًا وشمالاً كما يفعل الهائمون فى حلقات الأذكار، أو يطوف بضريح الشيخ فى ضراعة وابتهال، ولم يغير «زكى» خطته حتى بعد أن هدده

المحمدى الجحش، وأغلظ له فى القول، بل لم يكلف نفسه مشونة الرد عليه، أو الالتفات إلى حديثه الغاضب الثائر . .

***

وتزوج «المحمدى» من «ريحانة» بعد أيام .

واحتجزها فى البيت؛ وحرص عليها حتى لكأنها كنز ثمين يخاف عليه أن تنتهبه يد خبيث، أو ترمقه عين حاسد، وشعر ببرد الراحة يرطب قلبه. ويهدأ من ثورة روحه، بعد أن أصبحت له وأصبح لها، وخاصة أن «زكى» قد اختفى عن وجهيهما تمامًا؛ بل لم يعد يراه أحد فى أزقة القرية وحاراتها متجولاً كما كان يفعل من قبل، لكن لم يكد يمر أسبوعان حتى ظهر «زكى العرباوى» مرة أخرى؛ وأخذ يأتى قبيل الفجر ويطوف حول بيت «المحمدى» مثلما كان يفعل عند طوافه بالضريح، ثم يعود من حيث أتى، وقد رآه بعض أهل القرية على هذه الصورة. لكنهم لم يعيروا الأمر كبير اهتمام، أما «المحمدى» فقد أوجس من ذلك خيفة، وشعر بالغيرة والقلق ينهشان قلبه من جديد، وازداد حرج مركزه عندما ألمح أحد الفلاحين إلى ذلك، فما كان من «المحمدى» إلا أن قال:

- «كلب جربان يحتك بجدار بيتك، ماذا تفعل له؟؟».

- «اقطع رقبته بالفأس. .».

وصمت المحمدى برهة عندما ذكر زميله الساخر كلمة «الفأس» وعلت وجهه صفرة واضحة؛ لكنه استدرك قائلاً:

- «كيف ألوث فأسى بدمه النجس؟».

وحينما كان «المحمدى» مستغرقًا فى نومه هو وزوجه، صك آذانهما صوت أجش، صوت «زكى» الواقف أمام نافذة الحجرة وهو يقول فى صوت باكٍ حزين:

يا واخذ العهد صونه واوعى تفرط فيه

والعهد غالى يا ولدى ومرسومة الجلالة فيه

فهب «المحمدى» من نومه فزعًا، وقد فاض به الغيظ، بينما افتر ثغر ريحانة عن ابتسامة حلوة جذابة، تحمل معنى الدلال والعجب، وهمست:

- «ماذا جرى؟؟ أيزعجك لهذه الدرجة؟!».

- «ألا تسمعين هذا الهذيان الذى يهرف به!».

- «كله من دماغه.. ليقل حتى تنفلق رأسه».

- «وكيف ننام وهو يقف بالشباك ويزعق كالثور؟؟».

- «لا تسأل عنه.. إنه مجنون..».

وظل المحمدى واقفًا فى جمود، وقد عاد إليه شقاؤه القديم وغيرته القاتلة، واتسمت ملامحه بسمات الصرامة والحنق. بينما أخذ صوت «زكى» يبتعد رويداً رويداً. والصدى الخافت يتردد فى الحجرة الخافتة الضوء، ويطن فى أذنى «المحمدى» فى إلحاح وعناد، واستلقى «المحمدى» على ظهره، ولم يغمض له جفن حتى الصباح. لقد ظلت

عيناه تحملقان فى السقف. كان «زكى» كالشوكة التى تقف فى حلقومه. والظل الكئيب الذى يحرمه سعادته وهناءه. ولو كان أحد غير «زكى» هو السبب فى ذلك لهان الأمر، لكنه ذلك الأبله التافه.. يا للسخرية..

أيام قلائل عاشها «المحمدى»، وكأنه بين وهج الجحيم؛ لأن «زكى» كان يطوف كل ليلة حول البيت، أو يقف أمام الشباك، ويتغنى ببحر الحقيقة، والصيادين، والعهد الغالى، والجلالة المقدسة، و«ريحانة» تبتسم كعادتها، وزوجها يغلى وتلفحه نار الحقد دائمًا..

واختفى «زكى» إلى الأبد فجأة..

قال قوم: إنه أصبح من محاسيب السيدة زينب وهو يعيش فى رحابها الآن.. وزعم آخرون أنه من أهل الخطوة. ومن المرجح أن يكون قد ذهب إلى أرض الرسول ولن يعود من هناك. وقال المتعلقون: إنه شريد طريد طول حياته، فلعله واصل رحلة الشرد الخالدة حتى بلغ وليًا آخر من أولياء الله الصالحين.. وقليلون أولئك الذين نظروا إلى «المحمدى» وإلى فأسه فى شك وريبة. وكانت ريحانة ضمن هؤلاء..

أما المحمدى فقد قابل ذلك كله بصمت مطبق مخيف.

وسرت أخيرًا شائعة غير مؤكدة تقول: إنهم قد استخرجوا جثة من بحر شبين قرب بلدة «الراهبين» تشبه زكى إلى حد كبير. وكان برأس الجثة ضربات فأس قد حطمت الجمجمة تمامًا.

وفي اليوم الذي سرت فيه هذه الشائعة دخل المحمدي داره فوجد «ريحانة» تبكي وقد احمرت عيناها فصرخ :

- «لم تبكين؟» .

فرفعت رأسها ، ثم نظرت إليه ، وإلى فأسه طويلاً ، وشردت بأفكارها إلى مكان بعيد . . هناك عند نهاية بحر الحقيقة ، عند «الراهبين» . . . فصرخ مرة ثانية :

- «تكلمي . ماذا دهاك؟» .

- «لا شيء» .

- «حسن . . فلتذهبي لإحضار الطعام» .

فمشت ريحانة متثاقلة لتحضر له ما أراد ، وصوره فأس زوجها لا تغادر مخيلتها ، بينما كانت تطن في أذنيها ألحان ذات معنى عميق نعمت بها يومًا :

يا واخد العهد صونه واوعى تفرط فيه

والعهد غالي يا ولدي ومرسومة الجلالة فيه

٭٭٭

«... وتقويم الرجال يا فاطمة يجب ألا يخضع لعواطفنا أو رغباتنا الشخصية...».

رجال الله

ألقت «فاطمة بنت الوليد» بنظرها خارج الخباء، وأطالت النظر فيما حولها، مفتونة بروعة المناظر، وجمال الطبيعة وجلالها، إن بلاد الشام رائعة حقاً، حتى لكأنها قطعة من الجنة التى وعد الله بها عباده المؤمنين، وملأت فاطمة رئتيها بالهواء الرطب العليل، ثم عادت أدراجها إلى حيث كانت تجلس من قبل، لتواصل إنضاج الطعام الموضوع فى قدر فوق النار، وهى تغمغم بأرجوزة عربية مشهورة تروى عن الجهاد الأكبر، وانتصار جيوش المسلمين بقيادة أخيها خالد على جيوش الرومان.

ولم تكد «فاطمة» تنتهى من أرجوزتها، حتى أحست بدبيب خطوات عجلى تدلف إلى الخباء، وقبل أن تدير وجهها لترى من الداخل تناهى إلى سمعها صوت إحدى صويحباتها وهى تقول:

- «أبشرى يا ابنة الوليد.. إنه ليوم عظيم حقاً..».

فقالت «فاطمة» فى لهفة:

- «ماذا تعنين يا أختاه»؟

فأجابت:

- «أوه يا فاطمة، إني لا أعني غير شيء واحد، وهل يفكر نساؤنا ورجالنا في غير الحرب؟».

فتركت فاطمه القدر والنار المشتعلة تحته، وتوجهت بكليتها إلى صديقتها، وقد غمر البشر قسمات وجهها، وبرقت السعادة في عينيها وهي تقول:

- «أعلم ذلك».

- «واعلمي أيضاً أن جيوشنا قد تخطت أسوار دمشق، ففتحت المدينة أبوابها لموكب الحرية والنور والإيمان..».

فطغت على «فاطمة» موجة جديدة من الفرح وهتفت:

- «أحق ما تقولين؟».

- «ليس هنالك ظلال شك فيما أرويه لك يا «فاطمة»، وبعد لحظات قصار، سوف تسمعين طبول النصر، وهي تملأ الآفاق إيذاناً بالنصر الجديد».

فأقبلت «فاطمة» على صديقتها تقبلها، وتشكرها على هذه البشرى العظيمة التي طال ترقبها لها وقالت:

- «اعذريني يا أختاه، إنه لنبأ كبير حقاً، لقد طال حصارنا لهذه المدينة الحصينة، حتى كاد اليأس يتسرب إلى نفسي، إن الرومان لا يسلمون لنا أنفسهم وديارهم بهذه السهولة واليسر..».

- «صدقت.. لكن لا تنسى أنهم قوم ظالمون مستغلون،

وأهالي البلاد هنا لا يمكن أن يدافعوا عن قوم إذا أذاقوهم الهوان والعسف . » .

- «أجل يا أخت . . إن الرومان يحاربون بلا هدف ، أو قولى إنهم يموتون فى سبيل مجد زائف . أما نحن فنبذل دماءنا من أجل شيء كبير نؤمن به . . » .

فابتسمت الصديقة ابتسامة ذات معنى ثم همست قائلة :

- «آه يا فاطمة لو تسمعين ما يقال لأخيك خالد من مديح وثناء ، إنه سيف الله بلا منازع . . بطل الردة وفاتح العراقين . . وهازم الرومان فى أرباض دمشق . . لكم الفخر يا آل الوليد ، لقد بنى لكم خالد مجداً على الدهر ، لا تبلى جدته ، تعفى آثره . . » .

فأجابت «فاطمة» فى تواضع ظاهر :

- «إننا نصول ونجول بروح الله يا رفيقة . ولا مجد لنا كأفراد ، وإنما المجد والخلود لدين الله وللإسلام الذى أخرجنا من الظلمات إلى النور ، وخرج بنا من ضيق الجزيرة وانعزالها إلى هذا العالم الكبير الواسع لندعو ونحرر وننشر النور . . » .

ولم تكد «فاطمة بنت الوليد» تكمل عبارتها حتى سمعت دقات الطبول وأبواق النصر تنساب من بعيد ، فتجاوبها صيحات التكبير والتهليل من كل مكان فى معسكر المسلمين ، وخرج الأطفال والفتيان ، ومن بقى من الرجال يهزجون بالأشعار والأراجيز ويلعبون بالسيوف والرماح ، ويثبون هنا وهناك فى فرح غامر ، بينما

انتحت فئة ثانية من الرجال ناحية أخرى وأخذوا يؤدون صلاة الشكر لله من أجل هذا النصر المؤزر الذى طال ترقبهم له . وجلس البعض الآخر يفكر فى المعركة القادمة ، ويضع الخطط لزحف جديد تتسع به رقعة الإسلام وتنتشر به كلمة الحق . .

وأسرعت الصديقتان نحو باب الخباء ، ليمتعا أنظارهما بهذه المواكب المبتهجة ، ويسعدا بساعات النصر الغالية ، ولم تتمالك فاطمة نفسها أن قالت :

- «من مبلغ الخليفة عنا بهذا النصر العظيم . . لكم تمنيت يا أختاه أن يكون لى جناحان فأطير بهما إلى أبى بكر ، كى أحمل إليه نبأ الفتح الذى رزقنا الله به . . » .

- «لا تقلقى من أجل ذلك ، إن لم نرسل الرسل إلى الخليفة ، فسوف تسير الركبان بهذا النصر ، وتتغنى به فى كل مكان . . » .

وبعد فترة صمت قالت فاطمة فى شرود :

- «واشوقاه . . » .

- «إلى الديار البعيدة؟؟» .

- «أجل . . » .

- «صدقت يا فاطمة . . لقد طالت بنا الغربة ، ولم تستطع بهجة الشام ، ونضرة أراضيه أن تنسينا ديارنا رغم جفافها وجدبها» .

- «الوطن غالٍ ، يدفعنا إليه حنين ، وتشدنا إليه ذكرى .

لكن . . ماذا أقول؟؟ يجب أن تعلمى أن عزاءنا الوحيد هو أن غربتنا من أجل الله وكفى» .

❁❁❁

وبات جلياً أن انتصارات المسلمين الكبرى ، قد بثت الذعر فى نفوس الأعداء ، وكان ذكر هذه الانتصارات مقترنًا دائمًا باسم «خالد بن الوليد» ، وأصبح اسمه هو الآخر كافيًا لأن يثير الاضطراب والهلع فى قلب العدو ، وعلم جنود المسلمين- بل أيقنوا- أن وجود «خالد» على رأسهم بشير بالنصر ، وباعث للثقة ، وخُيِّل إلى الجميع أنه رجل الساعة بلا منازع ، وأنه خير من حمل اللواء ، وأنه لا يقل أهمية وعظم منزلة عن الخليفة نفسه ، وأوشك بعض المفتونين أن تتغير نفوسهم ، وينقلب إيمانهم بالمثل والمبادئ ، إلى إعجاب بالشخصية وتقديس لها ، وفى خضم الصراع الدامى ، والحرب التى لا تفتر ، سارت الأمور دون أن يلتفت أحد إلى هذا التطور الخطير ، وخالد ماضٍ فى طريقه لا يفكر إلا فى رسم الخطط ، وتدبير المعارك ؛ وتصريف الأمور فى البلاد المفتوحة ، ولا يفتأ بين لحظة وأخرى أن يرفع بصره إلى السماء شاكراً الله على ما وهبه من توفيق ، وما حقق على يديه من نصر .

وفجأة ساد الصمت والوجوم . .

وخفتت دقات الطبول رويداً رويداً . . ثم اختنقت . .

حتى الأطفال الصغار كفوا عن اللعب، والترنم بالأهازيج والأغانى . .

وأخذ الرجال يتحلقون فى أماكن مختلفة، وعلى وجوههم أسف وحزن . . والحيرة والقلق يسيطران على الجميع .

ترى ماذا حدث ! !

هل هناك جديد بشأن المعركة؟؟ هل تغيرت النتيجة، فتحول النصر إلى هزيمة، وأوصدت دمشق أبوابها فى وجوه المنتصرين الأبطال، أم أن أحد الأبطال القواد، قد قضى نحبه شهيداً فترك وراءه الحزن والأسى؟

وصارت «فاطمة» فى حيرة من أمرها؛ وأخذت ضربات قلبها تتسارع إشفاقًا وخوفًا؛ وصديقتها بجوارها قد استولت عليها الدهشة أيضًا .

قالت «فاطمة» وقلبها يرتجف :

- «ماذا هنالك يا أختاه؟؟» .

- «لا أدرى؛ لكن قلبى ينبـئنى أنه خطب جلل . . قلبى لا يكذبنى أبدًا . . » .

وفكرت «فاطمة» فى أن تبعث بصديقتها لتستجلى حقيقة الأمر؛ وتعود بالخبر اليقين؛ غير أنهما فوجئا بخالد بن الوليد يقبل فى هذه اللحظة مستأذنًا فى الدخول؛ فتوارت الصديقة . بينما

برزت إليه أخته «فاطمة» ؛ واستقبلته فى لهفة غامرة ، حامدة الله على سلامته ، ثم هنأته بالنصر الذى أحرزه فى كلمات سريعة مضطربة ، ولم تستطع أن تخفى قلقها على هذه الظاهرة التى تبدو فى المعسكر منذ لحظات . .

وألقى «خالد» بنجاد سيفه ، فى ركن من أركان الخيمة ، ثم غمغم وقطرات العرق تتقاطر على جبهته السمراء :

- «جرعة ماء يا فاطمة . . إن الظمأ يكاد يقتلنى . . » .

وتكلمت «فاطمة» وهى تقدم له الماء :

- «هل جد جديد؟ أراك متغير السحنة ، ثم إن المعسكر يسوده الوجوم منذ لحظات . . » .

فأسلمها «خالد» إناء الماء ؛ وصمت برهة : ثم قال وقد تبللت عيناه بالدموع :

- «وردت إلينا أنباء تقول إن الخليفة قد ذهب إلى الرفيق الأعلى» فصرخت «فاطمة» على الرغم عنها :

- «أمات أبو بكر . . ؟» .

- «أجل يا فاطمة . . مات ونحن أحوج ما نكون إليه . . ألسنا ننازل الآن أقوى دولتين فى الدنيا : الفرس والرومان؟؟» .

فأطرقت «فاطمة» وقد انسابت دموعها وقالت :

- «فليرحمه الله . . أدى الأمانة ؛ وحمى الذمار . . وجدع أنف المرتدين ؛ وقضى على الفتنة : ثم رمى بنا فى شتى أنحاء الدنيا ؛ لنحقق كلمة الله فى الأرض . . له الجنة . . » .

وظلت الدموع تنهمر من عينى «فاطمة» ، لكن ماذا يجدى البكاء والنحيب ، وقد حم القضاء ، ونفذ قدر الله ، وتحققت سنته التى لا فرار منها ولا فكاك !؟ صحيح أن المصاب فى أبى بكر فادح والفاجعة فيه لا تضارعها فاجعة ؛ وخاصة فى هذا الوقت العصيب بالذات ؛ لكن لا حيلة فيما أراد الله . .

وفكرت «فاطمة» فيمن سيخلف «أبا بكر» ، وتساءلت بينها وبين نفسها عن مدى كفاءة الخليفة الجديد ، وهل سيحمل العبء بشجاعة وإيمان مثلما فعل أبو بكر؟ وهل سيحقق الله على يديه النصر؟ وهمت أن تسأل أخاها عن ذلك كله ، لكنها استحيت أن تثير مثل هذه الخواطر فى وقت لا يفكر فيه الناس - على ما يبدو - إلا فى المصاب الفادح الذى نزل بهم ؛ واختطف «أبا بكر» من بينهم .

وقبل أن تترك «فاطمة» مكانها سمعت أخاها يقول :

- «وأوصى أبو بكر قبل موته بأن يخلفه عمر بن الخطاب» .

فقالت «فاطمة» فى دهشة :

- «عمر !!!» .

- «أجل» .

- «لكن . . » .

- «لكن ماذا يا فاطمة ! ! » .

- «أعنى أن فيه شدة» .

- «وهل حكم الناس يكون عن طريق التفريط والتهاون ! » .

- «ثم إنه يا خالد يحمل لك فى نفسه شيئًا منذ زمن بعيد . . » .

فقال «خالد» فى لهجة صارمة تحمل فى ثناياها شيئًا من اللوم الواضح :

- «لا تنسى يا فاطمة أن النبى قال : «جعل الله الحق على لسان عمر» . وتقويم الرجال يا فاطمة ، يجب ألا يخضع لعواطفنا ، ورغباتنا الشخصية . . » .

وسكتت «فاطمة» . .

لقد كبر أخوها فى عينيها أكثر من ذى قبل .

إن أخاها قائد يفهم واجبات القيادة ، وفى الوقت نفسه جندى يفهم أصول السمع والطاعة ، ولا يحمل لخليفته- رغم ما بينهما- إلا الثقة والحب والتقدير ؛ لأن الغاية الكبيرة التى تجمعهما لا تدع فرصة للمطامع الشخصية أن تتسلل بينهما بالتفرقة والعداء . وفى الواقع لم يكن «خالد» يفكر بعد ذلك إلا فى مواصلة الزحف ، وتطهير دمشق وما حولها من الأعداء .

***

لم يكن «خالد» يعلم أن هناك رسالة أخرى قد وصلت من الخليفة الجديد «عمر بن الخطاب»، ومن البديهى أنه لم يكن يعرف- تبعًا لذلك- ما تحويه هذه الرسالة الخطيرة، ولم يكن أحد يتصور أن يحدث ذلك فى هذا الوقت بالذات؛ لأنه يموج بالأحداث الجسام، والأعجب من ذلك أن «أبا عبيدة الجراح» قد كتم أمر هذه الرسالة عن خالد أمير الجيش؛ ولم يكن «أبو عبيدة» فى هذا الوقت إلا أمير لواء من ألوية الجيش.

وظل أمر الرسالة مطوياً عن الجميع، حتى انتهى المسلمون من أمر الرومان فى دمشق، وإرساء قواعد العهد الجديد فى المدينة، وما إن استتب الأمر، وهدأت الأحوال حتى أقبل «أبو عبيدة» على «خالد»، وفى يده الرسالة التى بعث بها «عمر».

كان «أبو عبيدة» متردداً . .

فالواجب يدفعه لأن ينفذ أوامر الخليفة الجديد دون إبطاء، وحبه لخالد وتقديره لبطولاته تمنعه من أن يصرح بالحقيقة الرهيبة، أيقول لخالد: إن الخليفة قد عزلك وأنت فى أوج مجدك!! والأقسى من ذلك أن أمير الجيش الجديد سيكون «أبا عبيدة» نفسه. . يا له من موقف صعب!!

وزاد من صعوبته أن «خالداً» إنسان كبير، وأن «أبا عبيدة» هو الآخر رجل فاضل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

ولم يجد «أبو عبيدة» مناصًا من أن ينفض ما بقلبه فى محضر

«خالد» . . وفى تواضع وتأثر همس «أبو عبيدة» بفحوى الرسالة التى بعث بها «عمر» ، فتقبل «خالد» الأمر بهدوء وكأن لم يحدث حدث ضخم . .

لقد كان يجاهد فى سبيل الله ؛ وهو قائد للجيش كله والآن لم يعد كما كان ؛ لكن هل هذا يمنع من أن يظل مجاهداً فى سبيل الله ! فليحمل سيفه ؛ وليمضِ فى طريقه . .

فالحرب هى الحرب . .

وكلمة الحق التى يحملونها جميعًا لم تتبدل . .

والغاية الكبيرة التى يعمل لها الجنود ؛ ما زالت تنير الطريق ، ولا ضير أن يكون «خالد» جندياً أو قائداً ، وأمير المؤمنين يجب أن يكون مطاع الأمر ، مسموع الكلمة ؛ والفترة الحرجة التى تمر بها الدولة الوليدة يجب أن تتسم بالهدوء والثقة وإنكار الذات . .

وبعد فترة صمت قال «خالد» لأبى عبيدة :

- «يرحمك الله . . ما منعك أن تعلمنى حين جاءك الأمر !» .

وأجابه «أبو عبيدة» :

- «إنى كرهت أن أكسر عليك حربك ؛ وما سلطان الدنيا أريد ولا للدنيا أعمل ؛ وكل ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ؛ وإنما نحن أخوان ؛ وما يضير الرجل أن يليه أخوه فى دينه ودنياه . . » .

***

وتناثرت الشائعات والوشايات والفتن . .

لم يستمع «خالد» لأقاويل الوشاة، ولم يلقِ بالاً لأولئك الذين حرضوه على التمرد والعصيان، وصرف النظر عن همسات الإثم التى تفوه بها المفتونون بمجده وبطولاته، والتى تنفثها الشياطين بين الجموع، وحينما قالت له أخته «فاطمة»:

- «كان قلبى يحدثنى أن «ابن الخطاب» سوف يفعلها ويعزلك . . ». لم يعلق على حديثها بشىء . .

وفى الصباح التالى، كان «أبو عبيدة» على رأس الجيش مكان خالد، بينما حمل سيفه ومشى خلفه أطوع من بنانه . ليس فى قلبه مثقال ذرة من حقد أو تمرد . عندئذ نظرت «فاطمة» إلى أخيها فى إعجاب وتقدير . ثم نظرت إلى «أبى عبيدة» فى غير ما سخيمة أو أسف . ثم غمغمت فى تأثر :

- «الله أكبر . . لكم النصر أينما سرتم أيها المؤمنون . . يا رجال الله . . ».

●●●

«.. إن النفوس الإنسانية قد تضيق بالتضحية، وتنفر من الإيثار وفعل الخير.. أضعاف نفورها من الشر..»

قلوب النساء

تململت «ثريا» فى فراشها، وكشفت عن وجهها الشاحب، وجبينها المتغضن المتبرم، ثم أرسلت آهة مريرة، وعندم حاولت أن تنهض. خانها ذراعها الواهن المحروق، فعادت إلى رقعتها مرغمة وقد أجهشت بالبكاء، وما إن سمعها «حسين» حتى هرول صوب سريرها، ثم ركع بجوارها، وقال وهو يفيض بحنان على يدها المرتعشة:

- «ما بك يا ثريا؟؟ أتبكين؟؟ لا.. لا، إن الطبيب يؤكد أن حالتك أحسن من قبل..».

فأرخت «ثريا» أهدابها المخضلة بالدموع وقالت فى سخرية:

- «حالتى أنا؟ من زعم أنها أحسن.. فعلاً، إنها أحسن لكن..».

وحاولت أن تواصل حديثها، غير أن الإنهاك الطويل، ومشاعرها الباكية عاقاها عن ذلك. لقد كانت تود أن تقول له: إن العلاج لم يُجدِ نفعًا حتى الآن، وأنها لم تشعر بأى تحسن منذ عام،

بعد أن أصابها داء الكبد اللعين، فظل تعيش على العقاقير المختلفة، وكأنها كانت تنتزع أيامها انتزاعًا من بين يدى القدر الشحيح.

وبعد فترة سكون همست:

- «جزاك الله خيرًا.. لشد ما أرهقتك معى».

- «ماذا تقولين؟ عيب كبير أن تقولى ذلك، وأتوسل إليك ألا تعيديه على سمعى مرة ثانية.. ألست زوجك؟».

- «وهذا حق، لكنى لا أنسى الاضطراب المالى الذى سببته، لك إنك لم تستطع أن تشترى بدلتك الجديدة كالمعتاد».

فضحك «حسين»، وهو يداعب خدها الشاحب الغائر بأنامله فى شفقة، وقال:

- «أهذا كل ما أهمك يا عزيزتى؟؟ البدلة.. البدلة فقط؟ لكم أتمنى أن تشفى سريعًا، ولو كل ثمن ذلك أن أستجدى الناس طعامى..».

- «آه.. المرض كالغول الرهيب، يبتلع كل شىء فى بيتنا.. أموالنا.. سعادتنا.. كل شىء.. ومع ذلك فهو لا يشبع..».

- «الصبر طيب يا حبيبتى..».

ونظر «حسين» إلى عينى «ثريا» وقد أغلقتهما، وأخذت تعض على شفتيها، واعتراها ضيق ظاهر ينبى عن ألم مباغت تحاول أن تكتمه فناداها فى رقة:

- «أنت تتألمين ، أأحضر لك شيئًا من المسكنات . . »

- «المسكنات . . هيه حياتنا كلها مسكنات وتخدير ونحن كالنائمين لا نفيق إلا إذا دهمنا الداء ، أو حلت بنا كارثة . . وقد قررت أن أستيقظ . . أن أظل بقية أيامى مفتوحة العينين ، رغم ما أقاسيه . . اسمع يا حسين» .

ثم فاجأته بكلمات كان لها دوى الرعد فى سمعه ، على الرغم من أنها ألقتها إليها فى نبرات خفيضة :

- «حسين . . » .

- «نعم . . » .

- «لا بد أن تتزوج» .

وأفاق «حسين» من دهشته ، وقد اغتصب ابتسامة باهتة وغمغم :

- «أتمزحين؟» .

- « . . . . . . » .

- «لم لا تتكلمين؟ إنه نوع من المزاح لا أستملحه»؟

فقالت دون أن تلتفت إليه ، أو تبدى اهتمامًا بكلامه حتى لكأنما لم تسمع تعليقًا ما :

- «وأنا خطبت لك «بهية» . . إنها صديقتى وابنة خالتى . . ثم إنها مؤدبة و . . جميلة ، ألم ترها أمس وهى تعودنى؟» .

فاتسعت حدقتاه وفغر فاه دهشة، ثم ثاب إلى رشده، وأسرع خارج الحجرة. وقد ترقرقت دمعتان فى عينيه الصافيتين، فهتفت «ثريا» فى راحة واطمئنان:

- «الحمد لله، لقد أزحت عن ضميرى عبئًا ثقيلاً، ثم إنى لبيت رغبة غامضة تحتدم فى أعماق نفسى.. ولا أعرف لها سببًا، وواصلت قولها فى حشرجة وبكاء:

- ولماذا؟ لماذا أتركه هكذا؟ كالأعزب وهو فى عنفوان رجولته، لسوف أموت اليوم أو غداً، وسيتزوج حتمًا، لأنه لن يعيش راهبًا، وابنتى الصغيرة بنت الثلاث سنوات، كيف أتركها دون أن أطمئن إلى من ستسهر على راحتها.. وجففت من دموعها المتدفقة، وقد طافت بذهنها أيام شبابها الزاهر، النابض بكل شىء جميل، وذكرى سعادتها الغابرة، ثم ذبوله كالغصن الذاوى بعد أن دهاها الداء، وما إن تذكرت أن أخرى ستحل محلها لدى زوجها إن عاجلاً أو آجلاً، حتى أحست بما يشبه النصل يمزق صدرها بقسوة وعنف أقوى مما يعمل الداء فى كبدها. قالت:

- «لا بأس، سيتزوج بهية، وقد عهدتها مختلفة وفية.. وسأضمن لابنتى الراحة.. وهذا أمر مهم، وحسين هو الآخر سوف يجد فى صحبتها شيئًا من السلوى عن فقدى.. ثـ.. ثم إن «حسين» كان يبتسم لها بالأمس فى مودة وإعجاب، ويبدى إعجابه بحديثها، وفى الوقت نفسه كان يختلس إليها بعض النظرات،

متوهمًا أنى لا أراه، ياله من مسكين، أنسى أن المرأة كالذئب قد تنام وإحدى عينيها مفتوحة؟».

وأدرك «ثريا» ما يدرك المرأة عادة من مشاعر مختلطة مبهمة، كما تصورت أن هناك غيرها، تحاول أن تشاركها فى زوجها، أن تنتزعه منها، لكنها تمتمت:

- «حرام أن تدفعنى أنانيتى إلى غير ما اعتزمته، مهما كان فيه من غرابة وشذوذ، ألأنى أول زوجة تبحث لزوجها عن خطيبة؟؟ ليكن ذلك، إن «حسين» نبيل وكريم، لكن النفس الإنسانية قد تضيق بالتضحية أحيانًا، وقد تنفر من الإيثار وفعل الخير نفورها من الشر، ومن يدرى؟ قد يطول فى المرض ف. . . ».

وأحست بآلام المغص الحادة تعبث بأحشائها مرة أخرى، فصرخت:

- «آه. . آه. . حسين. . الدواء. . سأموت. . أنجدنى».

وبعد دقائق كانت «ثريا» تغط فى نوم عميق من أثر المسكن، وما زالت تغضنات وجهها تحمل أمارات السخط والألم وأشياء أخرى.

كان «حسين» موظفًا بسيطًا يحمل دبلوم التجارة المتوسطة، فيه ما فى الفتى الريفى المستقيم من صبر واحتشام وغيرة على الشرف والتقاليد، لذلك لم تبدر منه بادرة ضيق، أو تبرم نحو «ثريا»، فواساها صابرًا، وظل طوال العام بجوارها مستجيبًا لرغباتها فى

الليل والنهار، وقد تلح عليه مطالب جسده، وتهزه رجفة شبابه، لكنه يكظم كل ذلك مكرهًا، نظرًا لما عليه من تبعات نحو زوجته، وابنته وأمه العجوز، وفي اليوم الذي جرى فيه ذلك الحديث بينهما، خرج حائرًا مضطربًا وهو يقول لنفسه:

- «ما هذا الكلام الذي تقوله ثريا؟ هل صحيح يجب أن أتزوج! وكيف؟ لا.. لا، إنها طيبة مخلصة، دفعها حبها لأن تعرض الزواج عليّ، حتى لا أشقى بشبابي وحياتي لكن من يدري! لعله مجرد امتحان تختبر فيه مدى صبري وثباتي وحبي لها، أو لعله هذيان محمومة تهرف بما لا تعي..» واستطرد مفكرًا: لكن لماذا بادرت بالخروج من عندها دون أن أنطق بكلمة احتجاج صريحة عميقة!! هل معنى ذلك أني...».

واستحيا أن يكمل خواطره، غير أن طيف «بهية» تهادى أمام خياله مياسًا متأودًا، وهي تنحني على زوجته الذابلة التي تودع الحياة في تثاقل محزن، فهاله الفرق بين الصورتين، وشعر بقلبه يخفق خفقانًا غريبًا، وغمرته مشاعر مبهمة غامضة، فهتف في ذعر وخوف:

- «ماذا دهاني! هل أحب بهية! يا للخيانة والعار!! أأنحط لهذا المستوى فلا أحترم إنسانة تحتضر!! إني لوغد سافل.. أمتص رحيقها، حتى إذا عبث بها الداء، تنصلت منها، وتنكرت لها، ولذت بالفرار كالجبان الرعديد! هل الدنيا غابة وحوش متصارعة،

أو واحة خضراء فيها حب وجمال وإنسانية!! ياللدناءة. هذا لن يكون أبداً. سأدخل على «ثريا»، سأحتج على اقتراحها الظالم، سأؤكد لها حبي الأبدي، وأهوي على يديها أشبعهما لثماً وتقبيلاً، وأبللهما بدموع الوفاء، وسأقول لها: يجب ألا تذكري اسم بهية مرة أخرى ولو أنها قريبتك..».

وشعر «حسين» بغير قليل من الرضا وراحة الضمير بعد هذا القرار الذي وصل إليه.

***

ومرت أيام قاسية قلقة، كانت تلفح «حسين» بشواظها الحارق، فامرأته ما زالت تحبو بأقدامها المتعثرة البطيئة نحو القبر.. والابنة الصغيرة ضائعة بين مرض أمها، وانشغال أبيها.. وأم حسين العجوز لا تكاد تغادر «سجادة الصلاة» إلا نادراً..

وشيطان الجسد يصرخ في إصرار بين أحناء «حسين» الذي يلتفت إلى «ثريا»، فلا يجد إلا جسداً واهناً برته الأسقام، وهيكلاً بارداً يودع الحياة..».

و«بهية» الفاتنة الوادعة، تتراءى له في اليقظة والمنام، فيندفع خيالها بعيداً عن ذهنه في قوة الرجل المستمسك الصبور، لكنه كان يتخاذل في النهاية، ويترك لأفكاره العنان، ولم يعد يستشعر الضيق أو الحرج إذا زارت «بهية» زوجته، بل كان يحادثها ويهش لها.

وظل «حسين» نهباً للحيرة العارمة، والهزات النفسية الراعدة،

فازداد ذهوله وشرود نظراته، وأصبح سريع الغضب، حاد الطباع، فكان يسارع بالخروج من البيت، لعله يجد خارجه شيئًا من الراحة، والتخفف من المسئوليات المتكلفة، ولو إلى حين، لكن تلك الصور المختلفة المتلاحقة لم تكن لتفارقه . . وكانت «ثريا» تلحظه عن كثب بنظراتها العارية، فيحزنها أمره، ويثقل عليها كونه مشتت الفكر ثائر الوجدان، فتناجى نفسها قائلة: «إنه مسكين . . لكن لم يبقَ إلا القليل، ثم يستريح بما أسببه له من منغصات . . هون يا رب . .».

ولعبت بحسين هذه العاصفة العاتية . .

فأخذ يصارع ويلهث باحثًا عن مخرج . .

وخرج «حسين» . .

وعندما أحس بشىء من الهدوء والراحة نظر فوجد حقيقة كبرى، وحدثًا ضخمًا . .

لقد تزوج «حسين» بهية . .

نعم تزوجها، دون أن تدق الطبول؛ أو يجلجل الغناء أو تمد الموائد، أو يوزع الشربات، ولأن «ثريا» ما زالت فريسة للمرض، ملازمة للفراش . .

كانت ليلة الزفاف كالمأتم؛ غير أن «حسين» كان يحس بطبول الفرح تدق بين أضالعه، وبمعازف ساحرة ترن فى أجواء نفسه، ولم

يخجل هذه المرة من شىء، ولم تعاوده أشباح الخيانة والتقاليد والأوضاع المرعية، لكن كيف تم ذلك؟

إن «حسين» لا يذكر تمامًا ماذا حدث، وكل ما يعيه مجرد سطور باهتة، فهو يتذكر أن «ثريا» قد فاتحته فى موضوع الزواج من «بهية» مرة أخرى.

ولا ينسى أن أمه العجوز قد طرقت معه مثل هذا الموضوع وألحت فيه.

و«بهية» هى الأخرى قد خاطبته فى هذا الأمر، لكن عن طريق نظراتها الحنونة، وطلعتها الباسمة، وزياراتها المتكررة.. ويذكر أيضًا أن شبابه الثائر، وفراغه القاتل، وأيامه المولية كانت كلها تهتف به: أن تزوج..

***

وقضى «حسين» مع زوجته الجديدة أوقاتًا رائعة سعيدة، لم يكدرها عليهما غير أنات «ثريا» المسكينة، وهذيانها ونفقاتها الباهظة..

وتغيرت «ثريا» كثيراً..

حقيقة أنها لم تشفَ، لكن ما هذا الثبات والهدوء والصمت الذى نزل بها؟ ولِمَ جفت دموعها فلم تعد تسكبها؟ أتلك هى صحوة الموت أم السكون الذى يسبق العاصفة؟!

ولم يفكر حسين في هذا الأمر كثيراً، وذات صباح كان يطبع على جبينها قبلة روتينية كالمعتاد، فشعر بحرارة لافحة تكاد تشوى جلدها، فهتف دون أن تنفرج شفتاه: «يا إلهى.. إنها الحمى الشديدة التى تضرم النار فى جسدها، وكأن «ثريا» قد فهمت ما يعتمل فى نفسه، فرمقته بنظرة فاحصة ذات معنى، وكأنها تقول له:

- ليست هذه هى حمى المرض، لكنها حمى أخرى تعرفها المرأة التى فقدت رجلها وهو على الحياة، بعد أن استأثرت به أنثى أفعى.. غيرها.

وفى مساء ذلك اليوم كان «حسين» فى حجرته مع «بهية»، يضحكان فى سعادة، ويخفضان صوتهما ما أمكن، ثم يهمسان همساً ليناً ودوداً وفى الحجرة المجاورة التى يفتح عليها باب مشترك بين الحجرتين، كانت «ثريا» متكورة فى سريرها، وكلها آذان مرصودة، تتسمع كل ما يند عن الحجرة الثانية فى رغبة مجنونة، وشغف شاذ، وكان جسدها كله يرتعد بالغيرة والحقد الملعون، فلم تنم.

واستطاعت بعد مدة أن تقوم من سريرها بهمة أسرع من ذى قبل، وكان جسدها المكبوت يقيمها ويدفعها... إن الحقد أحياناً - مثل الحب - قد يهب الإنسان قدرة خارقة، وقوة دافعة، وتسللت إلى حجرة زوجها، وقد اكتسى وجهها بسحنة شيطانية شريرة، ثم

انقذفت فوق «بهية» النائمة، وقد استلت سكينًا فى يمينها الواهية المعروقة.

وصدرت صيحة متوسلة من فم «بهية» المرتاعة، بينما هب «حسين» من سريره مذعوراً، فرأى «ثريا» ارتمت عليها وقليل من الدم يتسرب من صدرها وبحركة لا شعورية وثب «حسين»، ثم دفع «ثريا» دفعة قوية بعيداً عن «بهية» الجريحة، فإذا بالسكين ترتمى يمينًا، بينما وقعت «ثريا» على الأرض جثة هامدة بلا حراك، والنظرة الشيطانية ما زالت فى عينيها الجامدتين، والحقد الأسود الممزوج بالرعب يلون ملامحها.. أما «بهية» فقد كان جرحها سطحيّاً صغيراً لا خوف منه ألبتة..

قال «حسين»:

- «ما كنت أقصد قتلها، بل مجرد إبعادها عنك خوفًا من السكين التى كانت فى يدها..».

فقالت «بهية» فى هدوء..

- «وهل أنت قتلتها؟؟ إنها هى التى ماتت، وإن كان من الواجب عليها أن تموت منذ زمن بعيد..».

***

وفى الصباح كانت «ثريا» مسجاة فى فراشها، أما «حسين» و«بهية» وكثير من الأقارب فقد كانوا يذرفون دموعهم على روحها «الطاهرة»، وكلهم يتمتم: «رحمها الله، لقد كانت إنسانة ملائكية نبيلة».

فيرد صوت آخر:

- «صدقت، ألم ترغم حسين على الزواج. يالها من تضحية تنوء بها قلوب النساء»..

●●●

«.. كان خجلاً وهو يكتب هذه الكلمات، لكن الحاجة كانت أقوى من الجهل ومن الكرامة..».

أحوال

اجتاحت «عشماوى» نوبة جارفة من الحنق، بعد أن صافح صديقه «ماهر» واتجه كل إلى طريقه، كان «عشماوى» يصعد شارع الدحديرة قاصداً قلعة الكبش حيث يسكن، أما «ماهر»، فقد انطلق بعربته «البويك» لأن وراءه موعداً مهماً فى الشركة الكبرى التى هو عضو إدارة بها.

فما السر فى نوبة الحنق والغضب التى اجتاحت عشماوى؟؟

لقد كان يبتسم ابتسامة عريضة، حيثما هتف به «ماهر». واستوقفه ليصافحه بحرارة لأنه لم يره من مدة طويلة، وكان «عشماوى» سعيداً عندما رأى صديقه ينزل من عربته ويقبل نحوه فى مودة ولهفة. وسرعان ما بهتت الابتسامة بعد أن افترقا، وحل محلها تكشيرة تنبى عن الضيق الذى يكابده «عشماوى».

وغمغم «عشماوى»، وهو ينقل خطاه فى صعوبة بعد أن أجهده المسير وشدة انحدار الشارع، وقال لنفسه:

- «قسمة ونصيب. كنا معًا فى المدرسة الابتدائية، وكنت متفوقًا عليه دائمًا ومع ذلك تخلفت أنا عن الركب. أراد أبى أن

أختصر الطريق لضيق ذات اليد، ومن ثم قنعت بدبلوم الزراعة المتوسطة، أما هو فقد وصل حتى ليسانس الحقوق، وأخذ يثب وثبًا خفيفًا حتى أصبح عضو إدارة فى شركة كبيرة.. وأنا.. مدرس كحيان.. اثنا عشر جنيهًا هى كل إيرادى..».

وأخذ «عشماوى» يستطرد فى خواطره الكثيرة، ويعقد المقارنات بينه وبين فلان وعلان، ثم يحاول بين آونة وأخرى أن يعيد تنظيم الأربعين كراسًا التى يحملها تحت إبطه، لا بد من تصحيحها الليلة حتى يسلمها لطلبته فى الغد.

وغمغم مرة ثانية: «أنا لا أحقد على ماهر.. لكن أكره أسلوبه فى الحياة.. فالجميع يزعمون أنه أنانى، حقًا إن كلاً منا يعمل لنفسه ولمجده، لكن ليس إلى هذ الدرجة.. ويقولون أيضًا إنه زير نساء.. لكن مالى أنا ولخلقه الشخصى؟؟.. ويزعمون أيضًا أنه منافق كبير يتمسح بالرؤساء، ويغدق عليهم الهدايا والمجاملات كى ينال ما يريد، وفى الوقت نفسه يشمخ بأنفه فوق من دونه، ويعاملهم فى غطرسة وكبرياء.

وتذكر «عشماوى» عند ذاك أن «ماهر» منذ لحظات رفع يده النظيفة ذات الخواتم الذهبية، وعدل من وضع رباط رقبة «عشماوى»؟؟ لماذا فعل ذلك؟؟ أليسخر من «عشماوى» ورباط عنقه، وتهدل هندامه وياقته المتسخة قليلاً؟؟ أتراه يريد أن يلفت نظر عشماوى إلى الفرق الشاسع بين بدلة وبدلة، ومركز ومركز؟؟ ثم لماذا كلمه بتلك اللهجة

الرقيقة اللبقة، وقال له وكأنه يتعطف عليه: عايزين نشوفك يا عشماوى بك لازم تزورنى فى الشركة. هه.. منتظرك..».

وقال «عشماوى» فى مرارة وألم: «أى بك يقصد ذلك المغرور.. عايزين نشوفك.. يا سلام.. تحت أمرك..».

وزاد الحنق به عندما تذكر كل هذه الأشياء، واستطاع خياله أن يحول تلك التصرفات البريئة العادية، إلى ألوان من السخرية المتعمدة، والإهانة المقصودة، وأدرك «عشماوى» أنه يكره «ماهر»، ولكم فكر أن يكون صريحًا ولو مرة واحدة فى حياته، وأن يقذف بالحقيقة فى وجه «ماهر» دون النظر إلى أى اعتبار آخر، ويقول له: «أنت منافق.. وفضولى.. عديم الخلق.. مغرور.. ولا أريد أن آراك يا سيد ماهر..».

طالما فعل «عشماوى» ذلك فى خياله فقط، وطالما فكر فيه كلما جاء ذكر «ماهر»، أو عقب التفاته به، لكنه للأسف كلما صادفه وتصافحا ذابت شجاعة «عشماوى»، ونامت هواجسه وخواطره الشاذة، وابتسم ابتسامة عريضة.. وبذل من ضروب المجاملة والإطراء ما لم يكن يتوقعه، وهكذا كان الفرق شاسعًا بين ما يحلم به وينوى أن يعمله، وبين ما يقع فعلاً إذا ضمهما مجلس..

وانتهى «عشماوى» من شارع الدحديرة، وقد تحلب عرقه، ولهثت أنفاسه، ووقف قليلاً ليشترى عددًا من الأرغفة وربطتين من الفجل، وكمية من الطعمية، فكان ذلك بالإضافة إلى الأربعين كراسًا وكراساته الخاصة عبئًا أى عبء..

ودلف «عشماوى» إلى شقة بالدور الأرضى، رطبة كليلة الضوء، جدرانها من حجر الصوان ذى الحجم الكبير، وأبوابها خشبية متسخة وأرضها غير مستوية تمامًا، ورائحة الشواء والعفونة تنبعث من داخل الشقة والشقة المجاورة. والتقى «عشماوى» بأبيه الرجل العجوز الذى لا يغادر الشقة إلا لمامًا، وبأمه التى تقارب أباه فى العمر وبشقيقته التى لم تتزوج على الرغم من نضوجها التام، وحياهم فى فتور، ثم قصد على التو إلى حجرته عازمًا على الكتابة إلى «ماهر». . سوف يكتب له برأيه فيه بصراحة، وسوف يقطع تلك العلاقة التى بينهما لأنها لا تريحه، ولأنها تثير فى نفسه مشاعر كثيرة حانقة، وسوف يشعر «ماهر» أنه رغم فقره وظروفه العصبية أوفر منه كرامة، وأرفع نفسًا، وأقوى منطقًا وصراحة، ولا يهاب شيئًا. .

لكن أية علاقة يريد أن يقطعها؟؟ إنهما لا يتقابلان إلا لمامًا. . كل شهر. . أو شهرين، ثم إن اللقاء لا يتعدى كلمات الترحيب المألوفة وعبارات المجاملة التى لا يجد الناس غيرها فى مثل هذه المناسبات، ومع ذلك فقد أصر «عشماوى» على كتابة الخطاب الغريب إلى صديقه، وشعر بغير قليل من الراحة يسرى بين جوانحه، وكأنما مجرد التصميم على كتابة الخطاب شىء كبير فى حد ذاته.

ودخل عليه أبوه وهو يسطر الخطاب:

- «لماذا لا تترك تصحيح الكراسات لما بعد الغداء؟».

- «أنا لا أصحح الكراسات.».

- «ماذا تفعل إذن؟».

- «أكتب خطاباً لماهر..».

وعندما سمع أبوه اسم «ماهر»، بان الاهتمام على وجهه، وجذب كرسياً وجلس إلى جوار ابنه «عشماوى»، وهو يغمغم: «القلوب عند بعضها».

فحملق «عشماوى» فيه دهشاً وقال:

- «ماذا تقصد؟؟».

- «لقد كنت بصدد تكليفك بمقابلته، نحن فى مسيس الحاجة إليه، ألم تقل إنه عضو إدار بشركة كبيرة؟؟».

- «أجل..».

- «حسناً، إن مرتبات الشركات مرتبات خيالية».

فقال «عشماوى» فى صبر نافذ:

- «ماذا تعنى؟؟».

- «إنك بطىء الفهم يا عشماوى، ألا تعلم أن أختك الكبيرة التى مات زوجها وترك لها أولاداً أربعة، تفكر فى البحث عن عمل؟؟ لقد أتت على كل ما ادخره زوجها من مال، وباعت معظم

أثاث البيت، ولم تعد قادرة على الإنفاق على أولادها فى المدرسة، ولا على دفع إيجار المسكن، وسوف تنضم إلى أسرتنا -لا مفر من ذلك- ومرتبك لا يكفينا جميعًا . . ».

- «ثم ماذا؟؟».

قالها «عشماوى» وقد احتقن وجهه وأخفى بيديه السطور الناقمة التى يكتبها لماهر، فرد أبوه قائلاً: «وأختك -كان الله فى عونها- كفاءة ممتازة، وتجيد الكتابة على الآلة الكاتبة، وتحمل شهادة الثانوية الفنية، نحن مضطرون إلى ذلك يا عشماوى، الأمر فى غاية الوضوح . . ».

فهب عشماوى واقفًا، وقال محتدآ:

- «ولماذا لا تتزوج أختى رجلاً يكفلها؟؟».

- «من يكفل أبناءها يا عزيزى؟؟ أتعتقد أن الزواج أمر ميسور الآن؟؟ إن أختك الصغرى فى انتظار العريس من سنوات، لكن يبدو أن أحوالنا لا تشجع أحداً على مصاهرتنا، وأغلب الناس ينظرون إلى الزواج على أنه صفقة . . ».

***

طوى «عشماوى» الخطاب، ثم كوره فى قبضة يده، وقذف به من النافذة، وذهب لتناول الطعام، كان يمضغ اللقيمات فى تكاسل وشرود، ويستعيد ما حدث فى اللقاء الأخير مع «ماهر»،

ويستعرض ما يتناقله الأصدقاء عن ماهر متعلقًا بخلقه وسلوكه ومركزه الاجتماعى، ويفكر فى مشاعره المتناقضة إزاء هذا الإنسان، ووثبت إلى ذهنه على الفور كلمة «ماهر» الأخيرة: «عايزين نشوفك يا عشماوى بك، لازم تزورنى فى الشركة.. هه.. منتظرك..».

ومع ذلك فقد أصر «عشماوى» على عدم الذهاب إليه، أو مفاتحته فى موضوع توظيف أخته..

وفوجئ «عشماوى» بأبيه بعد ثلاثة أيام يقبل نحوه، وقد أشرق وجهه المغضن بابتسامة عذبة ويقول:

- «نعم الصديق اخترت يا عشماوى.. إن «ماهر» هذا شاب نبيل بمعنى الكلمة.. ابن ناس.. أتتصور أنه وافق على التحاق أختك بالشركة بداية الشهر القادم، وبمرتب عشرين جنيهًا.. ضعف مرتبك يا عشماوى، أتتصور ذلك؟؟»».

ولم يستطع «عشماوى» أن يعلق على كلام أبيه بشىء، لقد أذهلته المفاجأة، فأخرست لسانه، وفكر أن يثور فى وجه أبيه، ويكيل له اللوم والعتاب على ذهابه إلى الشركة، ويلصق أبشع التهم بماهر، ثم يصر على ألا تذهب أخته إلى عملها، حتى ولو أدى بها ذلك إلى الاستجداء، لكنه سمع أبوه يقول مستطردًا:

- «لقد استقبلنى أحسن استقبال. وقال لى: أنا تحت أمرك.. أية خدمة أستطيع أن أؤديها.. مرنى..».

وفكر عشماوى فى أخته المسكينة المترملة وأولادها الأربعة،

ومستقبلهم الغامض، والزواج العسير المنال فى هذه الأيام، والعشرين جنيهًا التى تقارب ضعف مرتبه، وسعادة أبيه وأسرته بهذه الوظيفة الجديدة، وفكر فى «ماهر»، الذى يحرص دائمًا على مجاملته والسؤال عنه ومقابلته فى مودة وحرارة، وسمع صوت أبيه حينذاك يقول:

- «كم كنت أتمنى يا عشماوى أن تبحث لك عن عمل آخر يزيد دخلك..».

ونظر «عشماوى» إلى أبيه فى حيرة..

وسكت..

لكنه لم ينسَ فى اليوم التالى أن يكتب خطابًا قويًا إلى ماهر الصديق الوفى صاحب الأفضال، والأيادى البيضاء. والخلق الرفيع، ثم يقول فى استحياء فى آخر الخطاب: «لست أدرى يا ماهر بك متى يكتب الله لنا النجاة من هم التدريس ومتاعبه. أتمنى أن يكون ذلك قريبًا.. والبركة فيك..».

كان خجلاً وهو يكتب هذه الكلمات.. لكن الحاجة كانت أقوى من الخجل.. ومن الكرامة.

●●●

الفهرس

●●●

مؤلفات الدكتور نجيب الكيلانى

- أدب الأطفال فى ضوء الإسلام
- أرض الأنبياء
- الإسلامية والقوى المضادة
- الإسلامية والمذاهب الأدبية
- الذين يحترقون
- اعترافات عبد المتجلى
- امرأة عبد المتجلى
- أهل الحميدية
- حكايات طبيب
- حكاية جاد الله
- حمامة سلام
- حول الدين والدولة
- دموع الأمير
- رأس الشيطان
- الربيع العاصف

●●●